



رسائل من زقاقستان

بقلم: الدكتور إبراهيم عبد

إهداء 2005 .

الأستاذ الدكتور / أحمد حمدي محمود
القاهرة

رسائل من نفاقستان

بقلم

الدكتور إبراهيم عبده

الطبعة الثالثة

١٩٧٤

مؤسسة سجل العرب
٢٦ شارع شريف — القاهرة

تحت الطبع

١ - رسائل مصرية

٢ - منكرات الومسواس الخناس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لم أعرف كتابا شغل الناس مثل هذا الكتاب ، فقد اختطف نسخ طبعتيه من السوق في أيام ، وهوجم في بيروت من صحف صغيرة ، وحيثه هناك صحف كبيرة ، وذكرته النيوزويك الأمريكية بالحمد والثناء ، ونشرت الاكسبريس الفرنسية شيئا مثل هذا ، ونقده غيرها من الصحف الانجليزية واليونانية والاطالية نقدا اثار في نفسي قليلا من الزهو ، وكثيرا من راحة الضمير .

ودخل الكتاب في امتحان عسير نحو أربعين يوما ، حتى هيا الله له وزيرا صادقا مع نفسه ومع الناس ، كاتبا ومحدثا واهل علم ، فأصفى بالمودعة لثورة التصحيح والدستور ووثيقة أكتوبر ، فوجد أن بالافراج عن هذا الكتاب يبطل الباطل ويصح الصحيح .

واذن فنحن نعيش حقا في اعطاف نظام لا يصادر الأفكار ، بل يمضي فيه الكاتب آمنا على رأيه ، مطمئنا الى يومه وفده ، مهما تختلف طرائق النظر بين الحاكم والمحكوم ، وهذه غاية افتقدناها نحن أصحاب الأقلام الحرة دهرا من الزمن ، فما كان لمثل أن يكتب لينافق ، أو ينافق ليكتب ، لذلك سعدت أن عشت فرأيتني أنفض عن قلبي غبار الزمن ، واكتب دون

أن يبسط لى الحاكم يده بمعروف أو يفزعنى بسوطه
المألوف ! ...

وهكذا يقرأ الناس الطبعة الثالثة كاملة لم يحذف منها
حرف ، بفضل هؤلاء العقلاء المستنيرين الذين تجاوبوا مع كلمة
الحق ، فكانوا رقباء يخشون سيد الرقباء الذى لا تغفل له
عين ، والذى أرجو أن يرعانا ويرعاهم لخدمة مصرنا التى
أحبها . . .
أحبها من كل قلبى . . .

ابراهيم عبده

يونيو ١٩٧٤.

يحكى هذا الكتاب

قصة

الذين نافقوا فنفقوا

كما تنفق الحمير

الإهداء

الى ابنتى رندة

ريحانة حياتى ، ونور قلبى ، ومن أقبلت على الدنيا
فأشرقت دنيائى والتي تخفف ابتسامتها من ابتلاء
الزمن . .

يوم الحشر

فجأة وبلا مقدمات ، نعى الناعى « مير » البلاد ، وسيد الرجال ،
الذى كان إذا أشار للنجم أن يهوى هوى ... وإذا أمر بالعتل التافه
أن يصعد إلى السماء صعد ...

مات « المير » الخطير الذى غير المفاهيم ، وأعلى بهامات وأسفل
بهامات ...

وكانه يوم الحشر .

فقد جاءت الملايين من كل فج عميق ، وأقبلت من كل صوب وحذب ،
من أعماق الريف والحضر . تلبث حائرة ، فإن « المير » الخطير قد أنبأهم
فيما أنبأهم من وعود بأنه سيعيش لهم حتى يبلغوا كل أمانهم ، وقد
صدق المير فى كثير من وعوده على مدى جيل من وجوده ، فلما جاء
نفيه بئمة دارت ودوسهم فلم يصدقوا أنه مات ...

فلما ألح الواقع عليهم ، وثابوا إلى رشدهم ، وأفاقوا من غيوتهم ،
تذكروا أن الموت حق ، فهُرَعُوا ليشاركوا في وداع المير ، القادر
الملمم ، الذي أنقذ الفلاح من ذله وجوعه ، وسعسا بالعامل قضى على
بؤسه وشقائه ، وجعل دينا « نفاستان » دينا العمال والفلاحين .

لو كان قلبي من حديد أو حجر ، لتفطر للوعة الملايين وهي تذرف
دموعها الغزيرة على سيد العباد وبض البلاد ، ولو أضيف دموعهم إلى
نهرهم العريض ، لفاض نهرهم العريض وأغرق البلاد .

فوق آلاف الأشجار التي زرعت وسط آفاريز الشوارع ، تعلق
الألوف من العمال بأغصانها الكثيرة ليشاهدوا موكب الوداع ، وكان
بعضهم حفاة الأقدام تشقت بطونها من الحفا ، وكان بعضهم رث الثياب ،
قد عبث بها دبح الزمن ، وكانوا يتحبون على المير ، الذي كان ظلاله
لهم نعم الظاء ونعم الكساء .

وقد هزنتي تلك الفلاحة وهي على طبيعتها ، تقف على إفريز الدار
العريض ، وفي يدها لقمة جافة ووعاء صغير يسبح الدود في مشائه ،
وتحت إبطها حزمة من الجبض ضيق ، جاءت من أعماق الريف تبتك الميرة
العاذل الذي قضى على الإقطاع ووهب الأرض للفلاحين .

وانتظمت جموع أخرى في موكب « نفاستان » التي خرجت كلها
باكية متعبة .

كان من بينها ملوك وأمراء ورؤساء خفوا إلى نفاقستان حزائي
سواء كان حزنيهم من قلوبهم ، أو رسمه النفاق على وجوههم .
وكانت النساء يصرخن ويلطمن الوجوه ، وكان الرجال يفتحون
ويشقون الثياب ، وبكى الشعب كله حتى تحرق مآقيه من البكاء ...
لقد كانت محنة أمة هزت هذا الرجل الذي عاش في «نفاقستان» دهرًا
طويلا لا يجرؤ على تسجيل ما رآه ، أو يكتب فيه حرفا لأصدقائه ،
منوء المقيمون منهم في «شقاقستان» أو في «توريطستان» أو في
«وردستان» أو في «إسلامستان» أو في «كجلبستان» أو في غيرها
من بلدان ...

وعاش الرجل بعد وفاة المير ، فترة من الزمن يملؤه الرعب الذي عاش
فيه أصحاب الأفلام الحرة والأفكار المنيرة المستنيرة .

كانت موجة الرعب تملأ كل قلب وتغمر كل وجدان ، فكان الرجل
يخشى أن تفلت منه قالة أو تصدر عنه حركة تقسر على النحو الذي كانت
تفسر به القالة أو الحركة في دهره الطويل الذي عاشه في نفاقستان .

ثم جاء «مير» جديد ، وأعلن للناس أنهم أمة حرة في دولة حرة .
ثم أمر بتصفية المعتقلات والسجون ...

ثم قال ، إن شعبى سيحيا منذ اليوم في إطار من سيادة القانون ...

ثم أمر بوقف التجسس والتبصت ، ومزق أوراق التلصص ، وحرق
أفلام الخزي والعار ، وحطم أدوات التعذيب والإرهاب ...

ثم دعا الناس إلى أن يفضوا ما بأنفسهم ، وأن يقولوا ما يريدون ،
حيكتبوا ما يشاءون ، ولا عليهم من وزير الشرطة «شعوربان» أو
وزير القصر «شمشربان» ...

وفرّح «صاحبنا» الذي عاش ثلث عمره مقصوف القلم ، لا يمسك
به سواه كان حبراً ، أو يافأ ، أو رصاصاً ...

لقد لسى شكل القلم ، وحجم القرطاس ، وهسو وجل أديب
ومؤرخ عاش معظم أيامه في نفاقستان ، وكان كل ما يرجوه أن يسجل
الأيام التي يحياها في رسائل يبعث بها إلى أصدقائه في شقاقستان
أو توريطستان أو وردستان أو إسلامستان ، بيد أنه كان في دعر
أن تنقض رسائله عند أحد الوزراء «شمشربان» أو شعوربان ، فيعجز
الجنّ الآخر عن مكانه ، إذ كان جزاء السكبة الحرة إجراءات تروى
بإجراءات المصور الوسطى ، وتصفريها عقوبة الرمي في الحب
أو الإعدام بالخازوق ...

لقد جاءهم «مير» من أنفسهم ، وأنفسهم — في الحق — مفطورة
على الحب والخير ، وما كان لنفاقستان أن تعيش كل أيامها في دعر
وخوف ، على النحو الذي عاتته «صاحبنا» وأقرانه قرابة عشرين
عاماً ، ثم بدأ يكتب رسائله ، وإن كان يكتب في تحرز وحيلة ، فلا
يزال في تفرق عن الاتفاق القريب الملى بالعود والمواصف ، وما كان
يحمل هذا الاتفاق في طياته من عذاب ...

لأنه يكتب بلا ترتيب ، ودون التزام بتواريخ الأحداث ، ودون
أن يرتبط في أى رسالة بموضوع واحد ، فكل ما يعنيه له من وقائع
شاهدها أو سمع بها سيسجلها في رسائله ...

لأنه نصف أديب ، ونصف مؤرخ ، ونصف مجنون أيضا ...
لأنه يحرب ...

لأن رسائله مغلفة وهو يظن أنها اليوم لا تخضع لرقيب ...
فليكتب ويحرب ...

عزيزي تقيان

عشرون عاماً لم أكتب لك ، ولم ألق منك رسالة تبصرني بالحال في
« شقاقستان » ، وكما أنا مشوق إلى أخبار شقاقستان
قلقي عليك كثير ، فإن الصحف هنا قد نشرت في الأعوام الأخيرة
روايات شتى عن أحداث شقاقستان ، مما يثير الفزع والخوف الشديد .
وإن لا تخيل فرحتك وأنت تفض رسالتى وهى بكر لم يبعث بها
في الطريق أحد ! فإن القوم هنا قد بدؤوا يعودون إلى طبيعتهم
السمة بعد سنوات من الانفلاق وسوء الفهم والتقدير ، فلم
تعد هناك رقابة على البرق أو الهاتف أو البريد . . .

عاد القوم إلى طبيعتهم حيث برأهم الله على المودة والمعروف ،
خلوا من الضغائن والعقد التى أرادوها لهم ، فحبيب الله رجاءهم ،
ورد علينا سيرتنا المأثورة عنا خلال آلاف السنين .

لقد انقطعت مراسلاتنا منذ قامت الثورة هنا ، تلك الثورة التى
فجرها — فى رأيى — من يحكم تفغانستان اليوم ، لأنه هو الذى
أذاع بيان قائدها ، ولو قدر لهذه الثورة أن تقتل لتصل منها
القائمون بها أو الذين رتبوا لها حيث كانوا يومئذ يحتفون تحت
الأرض ، وبقي من يحكم تفغانستان الآن وقائده وحدهما فى الميدان .
ولطازت رأساهما فى أكبر ميدان . . .

وأرجو أن نرى ما تنطوى عليه رسائلي ، فإني وإن لم أرض عن كل ما صنعه هذه الثورة ، فأنا بطبعي من الثوار ، بل أنا ثائر قبل أن يولاه معظم هؤلاء الثوار ...

لقد كانت تقلقني تلك المفارقات التي تؤرق حياة الوطن وتؤذيه ، ولا يرضاها التطور الذي مس الدنيا كلها وبقيت نفاستان وحدها لا تريد أن تنطور ، يسوس أمورها ملك خلا عقله من الفهم ، وتضرب قلبه من الحب ، ومضى يحاربهم أحرارها بغياء حتى ضاق الثوار فقاموا بشورتهم في ليلة من ليالي الصيف ، وصحبا الناس على بيان الرجل الذي يحكم نفاستان اليوم ، واطمأن الناس إلى ثورتهم ، فن أذاع البيان كان معروفاً بين جماعات الأحرار ، ومن وقته كانت رتبته وصيته وشجاعته في معركته مع الملك خير ضمان .

لا أستطيع أن أصورك غبطة الناس وسعادتهم بهذا التغيير الجذري لحياة نفاستان الذي طرأ في الشهور التالية ، فقد صدرت قرارات ضخمة ، كان لها في حياة البلاد آثار ضخمة ، وكان أولها قانون يحدد ملكية الأرض المزروعة وهو أعظم القوانين في تاريخ نفاستان .

كانت الأرض المزروعة يملكها الملك وأمرأه بيته ، وقلة من المواطنين ، وإن كان بعض هؤلاء المواطنين قد تملك هذه الأرض بوراً فأحسن إليها بجمده وماله الذي جمعه يهرب الجبين ، فأحاطها إلى قطعة من جنان ، لذلك شأب هذا العمل العظيم إحساس بالظلم مرّ

وثقيل ، فإن مصادرة أرض الملك وأسرته أمر مفهوم ، فقد سطت عليها الأسيرة الحاكمة من أجيال سحيقة ، وانتزعتها من أصحابها بالقسر ، وحازتها من غير حق ، ولكن مصادرة أرض الأحرار المجاهدين أمر لا يقره عرف ولا دين .

لقد كان أسلم طريق لتطبيق هذا القانون ، أن يُنص على أنه يحظر على أى مواطن أن يملك من الأرض — بعد عشر سنوات — أكثر من خمسين فداناً ، ثم تقرر فى الوقت نفسه ضرائب باهظة متصاعدة على هذه الأرض حتى يجعل أصحابها التخلص منها ، وبذلك يحقق الثوار هدفهم من هذا القانون العظيم .

لعل هذا الأسلوب كان من شأنه أن تتفادى الهزة الاقتصادية ، وإشاعة الكراهية فى نفوس أسر المالكين لأرضهم ، وإتاحة فسحة من الوقت يوزع فيها أصحاب الأرض أراضيهم بالبيع أو بالهبة ، وبهذا الأسلوب — مع تطور الزمن — ما كان لصاحب أرض أن يملك من الأرض شيئاً ...

وكانت غلظة فى التطبيق لأعظم القوانين الاجتماعية التى شهدتها أفغانستان منذ عرفت التثنية . لأن القانون العظيم ، وسائر القوانين الرائدة للمائة ، كقانون التأميم وولاية الدولة على المصانع والشركات تحتاج إلى كفايات خاصة ، وأخلاق أصيلة ، والقوم — للأسف الشديد — كانت توجههم بعض التقذ ، من أهمها الثقة فقط بأهل الثقة ، وإن أعوز معظم أهل الثقة ، العلم ، والتجربة ، لذلك شاب

هذه القوانين الرائدة سوء التطبيق ، وهم أنفسهم قد كشفوا أخطأهم وإن استمروا يمارون فيما اكتشفوه فوضوا يلحون — بالرغم مما كشفوا — أنه التوفيق كله التوفيق حتى أمر د اللير ، الجديد بالفتاحة اقتصادية ، فوضوا قوانين وقرارات اقتصادية صدرت عن فكر فاضح يستهدف تحقيق اشتراكية الرخاء والغنى لا اشتراكية الفقر والبوز والجوع .

إن شعور الناس بالطمأنينة ، بعد أن خلصهم د اللير ، الجديد من سلطان د سنشور-يان ، و د شعور-يان ، وغيرهما من وزراء الطغيان ، هو الذي شجعهم على نقد بعض ما صدر من قوانين ، وما أحاط بالتنفيذ من أخطاء وقصور .

إن الناس يطالبون بتغيير عميق يتقدم من القلق في معاشهم ، وتغيير كثير من الأوضاع التي لا تزال تحمل رواسب العهد القريب .

ولست أدري فيم الخوف والرعب والرجل الذي يحكمهم يدعوم إلى مزيد من الحرية ليقولوا رأيهم في صراحة ؟ وقد أقسم الرجل أن سيادة القانون هي سلطان اليوم ، وأن السنوات الثقيلة المريعة التي عاشوها بلا قانون ، وبلا ضمان للنفس والعرض والمال قد ولت وراحت ، وأنهم ينامون اليوم ملء جفونهم ، لن يطرق بابهم مع النجر صفر الثياب بأحذيتهم الغلاظ ، ويأخذهم من الدار إلى النار ، وأنهم أحرار لن يمرؤ أحد على التصنت عليهم وهم يتحدثون في التليفون ، أو يتناقشون في الصالون ، فقد انتهى عهد الطغاة الذين

كانوا يسجلون أحاديث اللواتين جلّت أو هانت ، ثم يسوقونهم
بما سجل عليهم إلى السجن أو المعتقل أو حيث لا يعرف لهم مصير ...

لست أدري فيمّ الخوف والرعب ؟ إلا أن يكون عهد الطفيلان قد
فرض على القوم أن يعيشوا في خوف ورعب فترقاً من الخوف
والرعب ١٤ ...

أما بعد يا صديقي فأني أمل أن أتلقى منك رسالة تطمئني عليك وعلى
سائر أفراد الأسرة ، وأحذرك أن تبصك بها عن طريق بريدكم ، فلتكن
رسالة شفوية مع قريب أو صديق ، فأنتم تعيشون في شقائقستان كما كنا
نعيش نحن في نفاقستان ، والله لكم يتقدّم في لحظة من رضاه ...

نفاقستان في ٣٠ مايو

كم سعدت برسالتك الرقيقة التي حلت أخبارك الطيبة، والتي تضمنت مع ذلك تبرمك بالحجر على الحريات في «شفاقستان» ولا أحب أن تأخذ الحياة من جانبها المعتم، فأنت موفق في عملك ، ولا عليك في صجرك عن التعبير عن رأيك بقلبك أو لسانك ، فقد اصطليناها هنا نحو ثمانية عشر عاماً ...

صدقني ، فقد كان بواب عمارتنا أستاذي الفطين كل هذه السنوات ، فمنه تعلت الصمت ، والرضى بالمقسوم ، ووجدت السعادة — أسوة بهذا البواب — في حمد الله على لقمة سائغة ، وجمارة الناس فيما يعقلون وفيما لا يعقلون ، ثم الاسترخاء دون تفكير سطحي أو عميق ، وفيم التفكير ، سطحيًا أو عميقاً وقد تولى عنا هذا فئة من الناس رأت — بالحديد والنار — أنها وحدها القادرة على الفهم والتمييز ١٩ ...

ويبدو أنك خرجت من رسالتك مخارج بعيدة عما كنت أريد أن تبيته .

لا أريد أن تفهم من الصورة التي صورتها لك عن حياة الناس هنا التي عاشوها نحو ثمانية عشر عاماً ، أن القيادة كانت شرأ كلها ، فهذا غير صحيح .

إن ، المير ، الذي حكم البلاد الجميلة كل هذه السنوات كان فئة من فئات القدر، ولا أريد أن أردد قول خصومه بأنه حكم بمقدرة الجحيمان،

والحرمان كما تعلم على الشر ، ويدفع إلى الظلم ، ويخلى القلب من الرحمة ،
والعقل من الاتزان .

لقد غير هذا «المير» من تاريخ نفاستان ، وغير من نظمها لكل
الناس أن يسعدوا ...

لقد كانت نواياه بالقطع طيبة ، فإن من يحمل هم ثلاثة أرباع
مواطنيه الذين عاشوا مئات السنين يُستغلون كعميد للأرض ، أو كعميد
عند بعض أصحاب المصانع والشركات ، إن من يحمل هم هؤلاء لا يمكن
أن تسكن عقدة الحرمان هي وسيلته في الحياة .

لقد كان شارلمان يحكم في الغرب نصف العالم ، ويحكم هارون الرشيد
في الشرق نصفه الآخر ، وطال حكم شارلمان وسط ثورات واضطرابات
لم يخل منها إقليم من الأقاليم الشاسعة التي كان يحكمها ، وكانت السفارات
بينه وبين هارون الرشيد راثمة غادية ، وفي إحدى تلك السفارات كتب
شارلمان لهارون الرشيد يستفسر منه ، كيف يحكم الخليفة هذا الملك الواسع
سنوات وسنوات دون أن يثور عليه إقليم أو تضطرب مقاطعة ، مع
اختلاف البلاد التي يحكمها لونا وذوقا وتقاليده وأجناسا ودينا ؟ فأجابه
الخليفة في سطر واحد ...

« لاني أحسن اختيار الرجال ، ... »

نعم ، لم يوفق «المير» الخطير في كثير من اختار من الرجال ، فتجرت
عن ذلك مأس كثيرة وأحداث رهيبية لم يكن هو نفسه يتوقع أن تجيء .
عن اختار من الرجال .

لقد اختار خدماً في القصر عمره خمسة وعشرون عاماً اسمه «تمشتر» يان ، وأطلق يده في سياسة الدولة ، فأنطلق الغر الصغير يبعث سياسة البلاد ، ويتحكم في رقاب العباد ، حتى إن تعيين بعض الوزراء كان يتم من خلال أفاضله الناعمة ، وكان بعض الوزراء النافين يقفون ببابه ساعات وأياماً ليأذن لهم بالقاء ، وكان يمر باسم «المير» الخطير أخطر القرارات التي تحمل الشر لآلاف البيوت، وكان بإشارة منه 'يسجن' أو 'يلقي في المعتقلات' العشرات والمئات من أحرار نفاستان ، وكان يعين ويفضل الموظفين من وراء ظهر «المير» الخطير ، وحتى ما كان يأمر به «المير» كان تراجع في مكتب سمشريان ، فإن لم يرق له الأمر المكتوب دفع به إلى آلة تمزقه ثم تمزقه ، وبذلك تضيق حتى رغبات «غير» البلاد عند هذا القتي الغر ثقيل الظل ، فارغ العقل ، فاضب القلب من الحب والحنان .

لم يوفق «المير» الخطير في كثير من اختار من الرجال ..

كان بعض وزرائه من الموظفين ، وكان اختيارهم يتم بتدشيع من البطانة والحواريين ، ولما كان يعرف «المير» العظيم واحداً منهم ، إذ كان معظمهم أصدقاء أو معارف لتلك البطانة أو أولئك الحواريين .

والوزير — كما نعرفه في بلاد العالم المتقدمين — على الوزارة وفي رأسه فكرة تستهدف الإصلاح والتعمير ، فإذا جرى بموظف وقيل له كن وزيراً ، كان لا بد أن يلى ذلك برنامج أو ورقة عمل يضعها له

ممشريان أو آخر من بطانة المير، الخطير، وكان عليه أن ينفذ ما وضع له في هذا الإطار المعلوم، فإذا سار على الدرب والتزم، استمتع براتب الوزير ومخصصاته، وأبهة الوزير وسلطانه، ولا بأس على من استوزروه أن يتركوا له حرية العبث بزملاء الامس، وفقاً أو خفصاً، تشريداً أو فصلاً.

فإذا رأى واحد من الوزراء — ومنهم بالقطع جماعة لا ينكر فضلها أو عليها أو خلقها — أن يهمل ورقة العمل التي وضعت له، والبرنامج الذي أوصوه به، وأراد أن يسوس الأمر بفكرة من عنده، لزم بيته والتزام البيت متجددة وفضل يخلع عليه، إذ جرت العادة أن يعامل معاملة أصحاب الرأي، وأصحاب الرأي لا مكان لهم في بيوتهم، بل مكانهم في المعتقلات والسجون..

لم يوفق المير، الخطير في اختيار الرجال.

لم يختر للوظائف الكبيرة إلا أهل الثقة، ولا يشترط أن استوظفوه من أهل الثقة أن يكون ملأً بالوظيفة، أو عارفاً خباياها، أو دارساً لشؤونها، وهو يؤخذ أحياناً من عمله الملم به، العارف أصوله، الدارس أموره إلى الوظيفة الجديدة التي يجعلها.

تجمل ضابطاً عظيماً في شئون الصواريخ قد عين رئيساً لمؤسسة الأخذية ١٩... .

وقس على هذا المثل مائة مثال... .

وأنك ترى الضباط العظام في مؤنسات الملاحين والمضارب... . والريث

والسكب ... والأسماك والألبان ... والبيض والدجاج ...
والفلفل والكمون ... واللحوم المحلية والمستوردة ... والمخازن
والتوريدات ... والمطابع والزئبقوغرافات ... وبيوت الموضنة
والأزياء ... والبقالة والمطارات ... والسفارات والقنصليات ...
والصحف والمجلات ... والمحافظات والوزارات ... والسيارات
والدرجات ... ومؤسسات الدين والأخلاق ... وشؤون الكتب
والمطبوعات ... وأموال النقد والمال ... ومعاهد الذرة والالكترونيات ...
والخزف والصيني ... والتصدير والاستيراد ... وإدارة القصور
والعمارات ... والنقل البطيء والنقل السريع ... والكياسية
والسياسة ... ومصانع الغزل ... وشوادر الأخشاب ... والمتوصفات
والمستشفيات ... وفلاحة الأرض وتحضير الصحراء ... والموسيقى
والألحان ... والأزجال والأشعار ... والقصص والروايات ...
وبطولة المسارح والسينات ... وفن الإخراج وكتابة السيناريوهات ...
والإذاعات والتليفزيونات .

ولهم لى كل مكان ، حتى لنحسم إذا بملت الرين أو استنشت
الهواء ...

ولكى أكون عادلاً ومنصفاً ، فإن جماعة منهم قد برزت فى هذه
الميادين الجديدة عليهم ، نحدوهم خطى التوفيق والنجاح ، ولكم
كانوا فى مواقعهم الأولى أعلاماً وأهلاً ، وجداراً لوطنهم وقت الضيق
والشدّة ، غير أنهم أهل الثقة ، والنظام فى حاجة إلى أهل الثقة ، وإن

كان الوطن قد نشأهم، وبوأهم . وببناهم، حتى إذا جدد الجدد وجدفهم
دفعه الذي يحميه من الكوارث والنكبات . . .

وهنا المأساة . . . إذ تطلع زملاء لهم إلى مثل هذه الوظائف
لتضعف ورايتهم مرات ومرات ، فشغلوا بالسعى وراءها ، فلما دعا
الداعي إلى منازلة العدو المغير ، خاض الجيش معركته ونصف ضباطه
في غير مواقعهم ، ونصفهم الآخر مشغول وراء مواقع لا علاقة لها
بالمضرب والنزال . .

وهكذا خسرت نفاقستان معركة الحرب ، وخسرت بأهل الثقة
معركة السلام .

ويقول أصحاب المير ، الخطير إنه غير مشغول عن سرائرهم
وأخطاء من عملوا معه ، فهو يحسه الدقيق وقلبه الرقيق رجل عطوف ،
يسط يده لكل من آمن به ، مالا وجاهاً ووظائف ، ومراتب عليا من
السلطان . وكان الكل يؤمن به ، ويقبل عليه ، ويتنافس في الرأى له
. . . الطيب والحيث ، العالم والجاهل ، الغنى والفقر ، وكان يستند أنه
بما صنع لهم سوف يردون إليه الجليل خدمة للوطن وإعلاء لشأنه . .

ويقول خصومه ، إن من عمل معه من اختياره ، وأنه لمسؤول
عن إساءاتهم وسوءاتهم ، وإنه لا يليق برعاية أمة أن تسوس هذه الأمة
ولا تحسن اختيار الرجال ، فإذا من اختارهم كانوا معاول هدم
وتخريب .

وردد أصحاب المير، الخطير قائلين ، لقد اختار بعض المواطنين لوظائف القمة فأحسن كثير منهم لبلادهم ، وحسناتهم لا يمكن أن تنكر أو يمارى فيها إلا ممرض مورتور ، فإن أساء بعض من اختارهم إلى الوظيفة أو إلى الأخلاق ، فالمير ، بشر يخطئ ويصيب وحتى عيسى عليه السلام لم يعدم فاسداً بين حواريه . . .

إن المير ، كان منكوباً في بعض من وثق به وركن إليه وسله قيادة الأمور .

أنظر كم ألفاً أمر خلفه بتحريرهم من السجون والمعتقلات ؟
أنظر كم ألفاً أمر خلفه بإعداد القوانين لرد حقوقهم إليهم ، ويمن الحقوق التي سلبها منهم أهل الثقة في النظام القديم ؟ ...

أنظر كم ألفاً رحت إليهم حقوقهم السياسية التي حرّمهم إياها الوزير سمشريان ؟ ...

أنظر كم ألفاً أبيع لهم السفر البعيد وراء الرزق ، وكان يحرمهم هذا الحق الوزير كنعوزيان وزبانيته في وزارة الأمن والنظام ؟

لقد أحسن المير ، الجديد اختيار معظم من اختار من الرجال ، فبدت أيامه الأولى وكأنها مطالع يمن ، وتحررت البلاد من كثير من أوضاع الظلم والطغيان ، ويرجى أن يزيد مع الأيام عدل المير ، الجديد فيرد لسائر المظلومين حقوقهم ، ويخلو عهده من فترات الماضي القريب ، هذا الماضي الذي ملأته مراكز القوى بكل فاسد وكره .

نفاقستان في ١٦ يونيو

أخي الحبيب

كيف لا تسعد وقد وزقك الله بنتا نير لك الدنيا بجمالها وحنانها
وإن في إنجاب البنات لرزقا ، وهن في البيت رياحين ، شذاها في
القلب والنفس جميعا . . .

إنك تخشى عليها الأيام ، وأنت تظن أن أيام شفاقستان ستمضي
هكذا سوداً ، وأن ابنتك ستشب في هذه الأيام السودا . . . إنها
لنظرة إلى الحياة مؤذية . . . إن الزمن لا يمضي على حال ، وإذا كانوا
قد فصلوك من عملك ، فإن كفايتك ومواهبك أدوات سمك في
كل مكان .

يا رجل : إعتلها وتوكل . . . لقد عشنا أيامك هنا لا يحكمنا قانون
ثم تبدل حالنا إلى أحسن حال . . .

إن قصتك مثلت هنا على أوسع نطاق ، فاستمع إلى ماجرى في
نفاقستان ليهون عذابك في هذا الامتحان . . .

إذا أصبح القانون في إجازة ، كما قال يوما واحد من أدوات
الطغيان ، ارتد المجتمع فوراً إلى مجتمعات الغاب . . .

وإذا صدر قانون يأخذ الناس بالظنة ، مخالفاً كل قواعد الإنسانية ،
مبايناً لأوامر الدين الذي يدرأ الحدود بالشبهات ، وإذا نص في هذا
القانون على حرمان المواطن من حق التظلم والتقاضى ، ارتد فوراً

المجتمع المنحصر إلى مجتمعات الغاب . . .

إن يصدر هذا القانون ، يصبح القانون فعلاً في إجازة . . .
 ووسط الفرحة بقيام ثورة الأحرار التي جاءت ترد الأمور إلى
 نصابها ، صدر قانون « الشبهات » وهو قطعاً من بنات أفكار خبيث
 من حملة الرتب في العهود السابقة ، أراد أن يحجب بها هذه الثورة
 ويغطي - نورها بصدور هذا القانون ، فقد نص على أن لكل موظف
 أن يكشف سموات زميله بالحق والباطل ، وفي هذا كتب مدير جامعة
 العاصمة الكبرى منشوراً إلى أسانذتها يطلب إليهم أن يهرعوا إلى
 لجان « التطهير » بما عندهم من سموات الأصدقاء وهنات الزملاء ،
 وكانت سقطة من مدير الجامعة ، بيد أنها سقطة مقصودة منه ، فقد كان
 واحداً من حملة الرتب في عهد ملك السقطات ، فحتم المدير بهذا
 المنشور حياته بأسوأ ما يحتم به مواطن دوره في الحياة .

ونص قانون الشبهات أو قانون التطهير على فصل من تحوم حوله
 شبهة في الإيمان بثورة الأحرار ، وهرع صراصير المستنقعات من
 المتخلفين ، فشهدوا زوراً بأن هذا الأستاذ أو ذاك ، لا يمكن أن
 يكون مؤمناً بالمهد الجديد وهو يلتزم حياة مترفة فيقتني سيارة أو يملك
 داراً بناها بعرق الجبين ، وهذه علامات إقطاعية ، وسمات طبقية ،
 لا تتفق وأهداف الثورة التي جاءت للقضاء على الإقطاع وإزالة
 الطبقات . . .

ووجد قضاة ومستشارون يجيزون فصل مثل هؤلاء المواطنين من وظائفهم ، ومن عجب أن بقى هؤلاء القضاة والمستشارون فى مناصبهم بعد أن تبين أنهم ساهموا فى التدليس والتزوير على هذا النحو الفريد فى تطبيق القانون .

ومن العار الذى خلفه هذا القانون فى الجامعات خاصة ، أن كشف عن هوان الخلق بين الاساتذة والمعلمين ، فأخذ التافهون بتلايبب النباه واستطاعوا فى غفلة من الزمن وفى ظل شريعة الغاب ، أن يطيحوا بمعظم الاساتذة المجتهدين ، فخلت الجامعات بذلك أو كادت من صفوة علمائها ، ولم يخسر هؤلاء العلماء شيئاً ، فقد تغنت بفضلهم وعلمهم الجامعات ومعاهد العلوم والفنون خارج نقاستان .

واستمر هوان الجامعات نحو جيل من الزمن ، حتى ظهرت من فئة الخسة والدناءة بالطردحين بانوا على حقيقتهم عند ذوى السلطان أو بقضاء من الله فيهم ، أو بإحالتهم مع أوزارهم إلى النقاعد والنسيان .

وكانت تقارير الفصل يكتبها المستشارون والقضاة وهم رؤساء لجان التطهير ، وترفع إلى مجلس الوزراء ، فلا تراجع المجلس ما تضمنته هذه التقارير من توصيات بفصل الموظفين ، بل يصدر قراراته بفصل العشرات والمئات فى كل جلسة تعرض فيها هذه التوصيات ، وحتى أسماء المرشحين للفصل قلبا كانت تقرأ على الميامين من الوزراء ، فإن العدالة

قد ناست في مجلسهم واستيقظت معاول الهدم تعمل بلا والزع من ضمير
أو خشية من إله .

ومن المفارقات الطريفة أن ابن شقيق رئيس مجلس الوزراء كان
ضمن كشف المفصولين في إحدى الوزارات، ولم يقرأ المجلس كالعادة
تقارير التطهير ولا أسماء المرشحين للطرْد والتشريد ، و فصل الفتى، وفصله
عه، وكانت كارثة في الأسرة عندما علمت بمصرع فتاها ، ولما حاول
عه علاج الأمر باستثناء ابن أخيه تبين أن استثناء هذا الفتى من الفصل
يقتضى استثناء عدة آلاف من الحالات ، وهو أمر فوق مقدور رئيس
مجلس الوزراء!

ولو قرأ الوزراء تقارير الفصل لتبينوا ما فيها من جور وعسف
وتضليل ، فقد فصل أستاذ من كليته لأنه يشرب ، كل يوم اللبن الذي
في عهده وكان اللبن الذي في عهده كل يوم نحو د طن ، من الحليب !

وامتد التطهير إلى كل وزارة وإدارة ، أو قل امتد الظلم إلى كل
مكان ، وكانت لهذا الذي وقع على آلاف المواطنين آثار خطيرة في
مجتمع نفاقتان ، بدأت بوفاة لبعض من علموا بفصلهم في التطهير، وكان
منهم طبيب شاعر ، غنت الدنيا قصائده ، وكانت كل تهمة أن صيته
كشاعر غلب صيته كطبيب، وما كان ينبغي في عرف من فصلوه أن يُقتل
شاعراً ، وقد عز على الرجل — وهو قيثارة نفاقتان التي على أوتارها

غنى المطربون والمطربات معاني الحب والحرية - عز عليه أن يحطمه قانون الغاب ... فمات ! ...

وكادت يد الندور أن تعصف بواحد من أعظم كتاب نفاقستان ، وكان يشغل وظيفة المدير لدار الكتب والوثائق ، وكانت جريمته أنه منصرف عن رعاية الكتب إلى تأليف روائع الكتب ! لولا أن حماة المير ، الخطير ، إذ كان يرأس مجلس الوزراء مصادقة ، فذكر أنه تعلم الوطنية من كتبه ، وأن اتهامه بأنه غير متج جريمة لا تقترف ، وأن الوزير الذي قدمه للتطهير يجب أن يظهر هو ولا يبقى في صفوف الوزراء ... ولعلها المرة الوحيدة التي أنصف فيها مرشح للفصل بالتطهير في عشرات الجلسات التي عقدت للقضاء على النخبة المشقة والصفوة المرتجاة من أهل الرأي في نفاقستان .

وقد كان بين زعماء الثورة ، ثورة الأحرار ، جماعة من شوائب المجتمع ، فطرت على الشر ، بقولهم غش ولوثة ، وكان كل منهم يظن أنه هو الثورة ! فيصدر باسم القيادة قرارات بفصل العشرات من الموظفين ، ولم يكن لهذه القيادة علم بهذه المذابح ، ولم يكن في مقدورها أيضاً أن تعالج أمراً أعلن باسمها في الصحف ، وقد يترتب على علاجه معركة بين العقلاء والمجانين . . .

ومن الآثار الاجتماعية الخطيرة التي ترقبت على قانون الشبهات ، أن بعض صغار الموظفين الذين حرموا وظائفهم لم يكن في مقدورهم مواجهة

الحياة بأسلوب كريم فأنحرف منهم من انحرف ، وإن عجز بعضهم عن الانحراف تولت عنه المهمة زوجاته وبناته وأكلن بأثدائهن ، وهو إثم أساء إلى ثورة الأحرار التي جاءت لتتصف الضعيف وتفتك البهيف ، وترفع رؤوس الناس وتحمي ذبولهم من الوحل ، وتطعمهم بطايع المزة والكرامة ، وهي الشعارات التي نادوا بها وحجبتها للأسف الشديد قواة من العسف والطغيان .

نفاقستان في ٢٧ يوليو

أخي العزيز

لقد أذهلني ما روتته رسالتك عن ثورتكم الدامية التي أطاحت بنظام الحكم عنكم... إننا في نفاقستان لا نعرف هذا اللون من العنف ، لأن طبيعة هذا الشعب السماحة والفران .

أعوذ بالله مما حملته رسالتك عن أحكام الإعدام بالجملة ، وسجل المواطنين في الشوارع وما أبشع تصويرك للرعايا وهم يشربون من دم خصومهم ويرقصون لتطاري أشلائهم...

لا يا عزيزي : إن ما تعيشونه هناك لم نعرفه نحن هنا ، ولم يطل بنا الزمن لترى الطريق...

صحيح لم يكن واضحاً منذ قيام الثورة لشهور عدة من يسوس أموز البلاد عندنا ؟

لم يكن معروفا من زمرة الثوار إلا ذلك الشاب الذي أذاع بيانها في صباح يوم قاتل حُرور ، ثم ذلك والمير ، الذي قدمته رتبته العسكرية وما قيل عن شجاعته في مواجهة الملك وصنائه من عسكريين ومدنيين . وكانت سياسة البلاد مائعة ..

هل ما حدث كان انقلاباً عسكرياً ، أو كانت حركة مباركة كما سماها العسكري الكبير ؟ ... أو كانت ثورة بيضاء كما تزجوها نحن الأحرار من المدنيين ؟

وهل كانت الحركة المباركة حركة يمينية تستهدف تغيير أوضاع أساليب الحكم دون مساس بالقواعد والأصول التي عاشتها البلاد عشرات السنين؟ أو هي حركة يسارية ترى إلى تغيير جذري يقتلع الماضي بكل شره وخيره ليحى مكانه بجديد يزعم اليساريون أنه الخير العميم والنعيم المقيم؟ ...

وكان العسكري العتيد وقد عين «ميراً» للبلاد لا يميل بطبعه إلى العنف أو التطور السريع خشية أن تكبر الثورة فتفشل أو تضيع، أو تنحرف عن مسارها الهادي، فتكسب البلاد وتجلب عليها متاعب قد تعوق تقدمها وتقف بها في الطريق، وكان يأمل أن يحدث «تثوير» لحركته المباركة على مهل وفي غير عجلة، سواء كان ذلك في شؤون الداخل أو الخارج، حتى إذا تحق أمه انسحب من الميدان وترك الأمر شورى للساسة المدنيين.

ولا أستطيع أن أحكم على سيرة «المير» قائد الحركة المباركة، بالرغم مما نشره من فصول عن حكايته، وبالرغم مما أذاعه عنه خصومه، وعندما يكتب التاريخ سيرته ويصف عهده، فلن تكون الكلمة لخصم موتور أو صديق مبهور أو موظف مأمور، أو لوثيقة مزورة أو مقالة منمقة، والتاريخ لا يسجل إلا كلمة الحق، وقد يمضى التاريخ في غيوبته فترة تقصر أو تطول، بتفسير أنه سيفيق جتماً ويضع النقط فوق الحروف.

ولقد كان أوله مير ، للبلاد — في يقينهم — عقبة يجب أن تزول
لذلك كان لابد من المير ، للجليل خفيف الظل أن يغيب ظله من كل
مكان .

ثم بدت القيادة تتركز حول شاب ذكي شجاع حازم حاسم ، لا ينكص
على عقبيه ولو أدى الأمر به إلى الموت ، فإنه معاند ، وزاده عناداً في
كل ما يراه من أمور ، أن أحداً عن يحيطون به لم يقب على رأيه برأى
ثم تولت أدوات الدعاية والإعلام ، بجمالة ، وبترتيب من البطانة ومراكز
القوى ، التسليح بحمده ، وتصويره ملكاً نزل من السماء ، وليس من
طبع الملائكة أن تحطى . أو تتشر أو تصدر عنها هفوة من الهفوات
أو هنة من الهنات . . .

ومع الأيام أخذت أدوات الدعاية والإعلان تزيد من نفاها حتى
غنت الإذاعات في المير ، الذكي الشجاع ما ترتله عادة الجماعات الدينية
في ذكر الله ، وكانت هناك أغنية حذف منها اسم الله سبحانه وتعالى
وذكر مكانه اسم المير ، القادر الجبار الذي يسبح بحمده سكان المنطقة
من الخليج الشائر إلى المحيط الهادر . . .

لقد كان المير ، الشاب ، بشخصيته القوية وجسمه الفاره ، وعينه
النفاذتين الساحرتين وصوته الملى ، وأناقته الملمحوظة ، وخطاه الثابتة ،
وطلعه المهيبة ، وسيرته الخاصة الخالية من عبث الشباب وبجونه ، كان
كل ذلك جديراً بأن يرفعه إلى مقام الزعامة والسلطان .

نورسّم هذا الشاب لنفسه ولوطنه بطريق المجد ، وقرر أن يريح من الطريق أى مانع أو بحائل ، فسوف يقطعه حتى يصل إلى مناه ، سواء فرش الطريق بالورود والرياحين ، أو فرش بحماجم الخصوم والشائنين . ولما كانت الصفات العظيمة قد تيسرت لهذا الشاب الفطن النبيه ، فإنه تصدر مائدة الحياة في نفاقستان ، وما كان يمكن أن يشاركه أحد في هذه المائدة ، لذلك نحى عنها معظم زملاء جهاده ، سواء العقلاء منهم أو اللثائون ، وانفرد بالمائدة وحده ، هو الذى يختار أطباؤها . . . وهو الذى يطهوها . . . وهو وحده الذى يصيب من أطايبها ويأذن لمن يشاء أن ينال منها بقسط . . . ودون إفراط !

ثم يرى هذا المير ، الشاب أن التوفيق كان دائما في خطاه ، وأن شجاعته التى واجه بها قوى العالم مجتمعة ، وليس له من سلاح إلا هذه الشجاعة ، قد أثمرت وآتت أكلها حتى جن به القوم في نفاقستان وتوريطستان وشقاقستان ووردستان وغيرهم من أبناء المنطقة الذين جبرتهم شجاعته وجروليته ، ومن ثم أصبحت له في قلوبهم قداسة لا يشاركه فيها لبسان .

ويطمئن المير الشاب إلى إلهامه الذى يرسم خطاه ويفسح له الطريق زهاء خمسة عشر عاما ، يطير به من قصر إلى قصر ، ويحقق له التوفيق قلوب التوفيق ، تدعمه أبواق الدعاية التى وثبتت ونُظمت وحشدت بأسلوب علم يعرفه التاريخ ، التاريخ الذى شهد ألف مير ومير ، ولم يرفع واحدا

منهم إلى مراتب الآلهة إلا فراعنة مصر ، ثم هذا المير ، الشاب ، مير دولة نفاقستان ! .

لقد اشتهر عن ناس نفاقستان أنهم قوم يستأثرهم الإيمان ، الإيمان ، الإيمان بأي شيء ، فليكن إيمانهم في عبادة الشمس أو القمر أو النهر ، أو الجمران ، أو القط أو الثعبان ، أو العجل الكبير . . . فإذا انتهوا إلى عبادة حاكمهم فتلك غاية التقوى والإيمان ، فهو على الأقل من لحم ودم وله عقل نابه وفي مقدوره أن يعاقب ويثيب . . .

وكان الحب يعميهم أحياناً عن وزن الأمور بميزان دقيق ، فقد ظهر في نفاقستان قبل الميرة الخطير بنحو خمس وثلاثين سنة ميرة أخرى ، زعوا من فرط حبهم له وإعجابهم به — أن اسمه حفرته النهاية الإلهية على البطيخ وهو في الحقل لم يتضح بعد ! . . .

هكذا كان أهل نفاقستان من آلاف السنين ..

أجيال تروح وأجيال تيجي ، وكلها ترى — إيماناً أو نفاقاً — أن صاحب الزعامة أو السلطة ، سواء جاءته شرعاً أو اغتصاباً ، هو الإله ، فإن نهاهم دينهم السماوي عن هذه الزندقة وهذا الإلحاد اعتبروه ظل الله في أرضه . . . فهو الإنسان الذي لا يخطئ ، الذي لا ترد له كلمة ، الذي لا يعقب على رأيه برأى . . . الذي يجب أن يؤمن به من سعد بنعيمه أو تعس ببحيمه ، الذي يجب أن يُشتق أو يُسجن أو يُعذب من لا يرى فيه رأى القطيع من أهل نفاقستان ! .

نفاقستان في ١٢ يوليو

أرجو أن ترى معي أن النفاق أشد الشر في ألوان الشر...
وسوف تبثك رسالتى هذه مجدداً في النفاق لم تر الدنيا نظيراً له ،
ولن ترى الدنيا نظيراً له ...

أفهم أن ينافق فرد أو جماعة ملكاً أو ميراً ، ، أما أن ينافق شعب
بأسره هذا الملك أو هذا المير ، فتلك معجزة القرن العشرين الذي
نعيشه والتي تضل حياها اختراعات الذرة والهبوط على سطح القمر .

لقد كانت معارك الصحراء في نفاقستان علامة واضحة على
طريق النفاق .

ولا أفيض في الحديث عن المعركة الأولى منذ سبعة عشر عاماً ، فإنها
كانت أقرب إلى النصر منها إلى الهزيمة ، ذلك أن المير ، واجه فيها جحافل
دولتين عظيمتين ، وهو لم يستكمل تسليحه بعد ، وهو لم يعتمد على أحد
من قبل ، وقد أعلن أن من حق بلاده أن تسترد طريقاً ، حيويّاً لها
كان يستغله أجانب عن نفاقستان ، وقد استطاع أن يكسب معركة
« الطريق » بالرغم من الهزيمة ، واستطاع بإيمان شعبه وحيويته أن يرد
المغيّرين من غير حربه .

كانت معركة « الطريق » أقرب إلى النصر منها إلى الهزيمة .

وقد انتهزت الدولة توفيق المير ، في هذه المعركة الخطيرة فأنطلقت
أبواقها من صيف وإذاعات يتحدث عن البطولات الخيالية ، وتطلب

للقلق الذى عم الشعب بأغاني النصر التي الفت ولحنت وأذيعت في ساعة زمان ، وتنافس المؤلفون والمطربون في وصف هذا النصر حتى رقص الناس في الشوارع ، وأقامت الهيئات المآدب ، وجن القوم في المنطقة كلها ، بميرنا ، الخطير .

وكنت أنظر إلى د مير البلاد ، بعد هذا الامتحان مبهورا كسائر الناس ، وكنت أدعو الله أن يجنبه سوءات الانتصار ، وتمنيت من كل قلبي أن يبقى حيث هو ، في القمة هدى وبوجه ويشير ، بعيداً عن الرساويس الخنايس .

لأنه بعده هزيمته المنتصرة ، يستطيع أن يمضى فينا كما مضى بوذا في قومه من عشرات القرون .

لقد كان في مقدور د المير ، الساحر الخطير أن يعيد سيرة بوذا في القرن العشرين ، ولكن بطانة السوء ، وحواريي الظلام ، ومراكم القوى الباغية الطاغية ، أرادت غير ما كان يريد أمثالنا من طامة الناس . . .

ثم ماذا ؟

إذا خسر د المير ، العظيم الحرب بعد عشر سنوات من الهزيمة المنتصرة ، وكان حسم الكرامة في هذه المرة أكبر من الدعاية وأقوى من الدعاة ، أجهضت أغاني النصر ساعة مولدها ، وساد الأسى جميع النفوس ، وبانت الحسرة على الوجوه في الشوارع والبيوت .

تم يظهر «المير» في المراثيات يعلن في شجاعة منقطعة النظير ، مسؤوليته وحده عن الكارثة التي حلت ببلاده وانتهت إلى هزيمة لم تعرفها نفاستان من آلاف السنين ، ثم يقرر استقالته في نغم أجرى الدمع في مآقينا ، فقد بدا كالأسد الجريح لا يملك من نفسه شيئاً ، وكان خصومه أشد الناس بكاءً وأكثرهم ألماً ، ذلك لأن «المير» كان يتنا كرب الأسرة الذي قسا على بعض أبنائه . ولأنهم — من قسا عليهم — ليضيقون بقسوته ، غير أنهم لا يسيغون أبداً إهاناته ولا يرضون هوانه ، فإن في إهاناته وهوانه عاراً يلحق بالأسرة جميعاً .

وفجأة هُزعت الأمة كلها تطالب ببقاء «المير» في موقعه ، ومضت تهتف بحماته ، وتتغنى مآثره وأمجاده ، وتسبح بحمده زلفاً من تلك الليلة العاصفة بنارات العدو ، حتى إذا طلع النهار كان «المير» هو وحده المنتصر بين شعبة المهزوم ١٩٠٠ .

إن الرجل الذي انتصر وسط شعبه المهزوم لم يواجه في الحق نصراً في حياته مثل هذا النصر يوم انعكس جيشه بسوء القيادة أو انصراف القادة إلى غير الساحة التي أهلوا لها ، أو تعدد الرياضات وتضاربها في الميدان أو وقوع بعض الخيانات من الصغار والكبار على السواء .

إن عشرات الألوف من أبناء هذا الشعب الذين فقدوا حياتهم في الميدان ، وتخريب المدن الزاهرة ، وإغراق البلاد في الديون ، كل ذلك لم يجسب

النصر الذي عاشه المير ، وأضفاء عليه شعبه في إصرار لا يمكن أن
يجي . كله بتنظيم وتدبير ...

هل وقتت الجريمة النكراء موجة الرياء في نقافتان ؟

والله ، إن في المير ، لسحراً ...

لقد أهل التقاط بعض القضاة والمستشارين وبعض أساتذة الجامعات
وغيرهم من خيار الناس — وإن كانوا جميعاً قلة بين زملائهم — لأن
يكونوا مطايا لظروف الحياة ، فقد رموا المال والجاء عند السلطان
فأغذوا السير إلى ساحته ، ونافسوا — بالرغم من جراح الوطن —
في اشتراغ القوانين التي تزيد من الحجر على حريات وعقول الناس ، وألف
هذا البعض من أساتذة الجامعات الكتب في سيرة المير ، وفلسفته في
طرائق النظر إلى الأمور ، وما كان ينبغي أن تكون هناك أمور يعلو
صوتها على صوت المعركة والجهاد لرد العدوان ، ومن ثم استرداد الكرامة
التي امتنت بسوء التوجيه والتدبير .

ثم بلغ النفاق ذروته حين وقف محافظ الجنوب يوماً يعلن أن
المير ، نبى أتى عالم تأت به الرسل والأنبياء من قبل ، وكان المحافظ يخاطب
في عدة آلاف من المواطنين احتفالاً بزيارة المير الساحر ، فهمهم المستمعون
مستغربين من هذا الإلحاد في بلد يقال إنه منارة الدين — أو نظر الناس
إلى وجه المير ، فرأوا امتعاضة وحجرة كست هذا الوجه الكريم ، وتوقعوا

مسيراً شيئاً لهذا الملحد الذى أعلى من قدره المير، ووضعه فوق
أقدار النبيين...

وتم عقاب المحافظ بعد أيام فرقى عافظ لعاصمة نفاستان ١٩١٠...
ربما كان المحافظ الذى استهل نشاطه فى العاصمة بأمر منح القانون
لإجازة الرجل فيما قال متأراً بكتاب كارليل عن البطولة
وأصحابها ولم يكن يعنى إلا هذا اللون من عبادة الأبطال...

لم يكن طبعياً أن يكون لرجل على خلق نصيب فى مادبة النفاق
والمناقين، فكل من ولى منصباً قيادياً كان لابد أن يكون فى التنظيم
السرى الذى تدبره البطانة ومراكز القوى، وكان عدد هذا التنظيم فيما
يقولون خمسين ألفاً من المناقين والانتهازيين، يُختار منهم جل
الوزراء، وكلاؤهم، ورؤساء المؤسسات ومديرو الشركات والسفراء،
وسائر الوظائف الكبرى، ونادر أن يختار واحد من غير هذا التنظيم
لعمل كبير يعتمد به أو يكون فيه فضلة من خير أو بقية من سلوى...
وكان هذا التنظيم عيناً ترى وأذناً تسمع، ترى وتسمع ما يفعل
ويقول المواطنون... وسلط التنظيم عيونه وآذانه على أهل الرأى
والفكر خاصة، فهم عادة أخطر المبصرين، وهم عادة أقدار الناس على
الكلام المفيد والنقد الموثق والتوجيه السليم، لذلك كان من بين أعضاء
التنظيم، أساتذة فى الجامعات ومعلمون فى المدارس، وقضاة فى المحاكم،
وعامون وأطباء ومهندسون وصحفيون، ومثلهم فى كل موقع
صغير أو كبير.

ولم يكن عبء العمل في التنظيم عند أعضائه ثقيلا على الفهم أو القلب أو الضمير !

إن من الواجبات الأولى على السادة أعضاء التنظيم ، أن يسجلوا ما يرونه أو يسمعون في تقارير ترفع إلى الخلايا الخاصة بهم ، ثم إلى خلايا أعلى ثم إلى البطانة العتيدة ، وعند ساحتها يصدر القرار بالنسبة للمواطن الجسرى الذى سجلوا نقده الصريح أو تقلوا رأيه الجسرى ، فله إذ ذاك أمتار في سجن ضيق أو مكان في معتقل فسيح ، فإذا كان ماسجل أو نقل يستهدف الحى على كراهية النظام أو التفكير في ثورة أو انقلاب ، فذلك يقتضى تعذيب المواطن حتى يفقد الذاكرة أو يفقد الحياة بلون فريد ، كأن يموت بسم زعاف أو بنفخ الاحشاء والبطون أو تدممه سيارة في الطريق

أما عضو التنظيم الذى كشف صاحبه ونقل عنه نكته في البطانة أو مزحة في المير ، فعلى قدر ماسجل ونقل يثاب الرجل ، فيكون وزيرا في أول تعديل وزاوى ، أو يصدر قرار بولايته لإحدى المؤسسات أو الشركات أو المحافظات أو السفارات ، أو غير ذلك من وظائف القمة ، أو ينحى له رئيس مؤسسة أو مدير أو محافظ أو سفير ليأخذ مكانه ، فمن التقارير ما يستوجب الجزاء السريع ، أو تخلق له إحدى هذه الوظائف ، والتنظيم قادر بتوجيه القيادة العليا على خلق الوظائف في شتى الميادين .

وكنا إذا قرأنا في الصحف أن فلاناً قد عين في وظيفة من هذه الوظائف وأن صاحبها الأصل قد نحي عنها ، فهنا أن تقرير القى الجديد في التنظيم السرى كان أدهم وأوقع من تقرير القى القديم الذى نحوه عن عمله ، أو نقلوه إلى عمل آخر ، أو ذهبوا به إلى بيته مع احتفاظه بحقه فى الراتب الكبير دون عمل يؤديه ...

لو أن أعضاء التنظيم الحثين ألفا التزموا الصدق لصحت رسالة هذا التنظيم على ما فى هذا الأسلوب من مجافاة للخلق الكريم ، لأن التجسس وظيفة استسكرتها الأديان جميعا ، وأباحها كثير من الدول — بالرغم من استسكار الأديان والأخلاق لها — لحماية أوطانها من خطر خارجى داهم ، أو خطر عدو قريب أو بعيد ، فقد كان أعضاء هذا التنظيم يزورون التقارير ليزيحوا أصحابها ممن يشغلون مواقع يتطلعون هم إليها ...

هؤلاء الآلاف من المواطنين الذين انتهوا إلى السجون والمعتقلات كانت لهم أسر تضورت جوعاً أو انهرقت خلعاً ، وقد باركت بطانة . « المير » كل هذا الظلم والفساد ، ولم يتبقيت ضميرها يوماً لترفع عن هؤلاء الضحايا ما جرته عليهم من الدل والبلاء ...؟

ثم ماذا يا صديق ؟

يشاء ربك فيطوى سيرة وينشر سيرة ، فتجىء قيادة جديدة تطفى هذا النظام لإنهاء وتغفل السجون والمعتقلات من صرعاة ...

نفاقستان في ٥ سبتمبر

أمل أن تكون قد أعجبتك ، المانجو ، التي حملها إليك صديقتنا شرشور ، فهي «القطعة» الأخيرة من مزرعتنا التي تَرْتَد عند أقدام أثرنا الخالد العظيم ، وكم بودى أن تزورنا يوماً لترى هذا البلد الذي يعبد ناسه ويحبه زائروه ، فكل شيء فيه جميل ، وكل شيء فيه سهل وميسر .

إن من طبع الناس هنا أن يتركوا حياتهم تجري مجرى نهرهم الكبير لا يعترضها هم ولا غم ، وحتى إذا نزل بهم الهم فلن يطول في نفوسهم وسوف يزحونه بنسكة أو حكاية تنسى الهموم ، أو يقبلونه على أنه القدر المقسوم .

إنه شعب ضاحك باسم وواح ... إنه أخف شعوب الأرض ظلاً ... عنوان الصبر واحتمال المظالم ... فقد عاش آلاف الستين يبني الهياكل الخرافية والقنوات المثالية ، راضياً سعيداً ونصف البناة يتساقط من البرد والجوع ...

نصف كلامهم نكت وسخرية ، وأحياناً تكون هذه النكت والسخرية أشد عنفاً من طلقات الرصاص ، وهي تزيد وتلذع حين يعز عليهم التعبير عما في نفوسهم من مسخط وضيق ... إنهم يسكتون حتى في سرادق المزاء ! وإن عزت النكة في خصم أو صديق ، تناولوا

أنفسهم بالتكيت والتبكيك ، وطارت هذه النكت تروى في كل بيئة
وتجمرى على كل لسان !

ولشد ما يزعمنى أن أجد الموسوعات العالمية لم تقف نفاقستان حقها
ولم تبرز جغرافيتها وتاريخها على نحو يتفق وعظمتها ، ولم تذكر أنها
دولة قديمة قدم الليل والنهار .. سماؤها صافية وأرضها مواتية ،
الطينان فيها قاعدة الحرية استثناء يقع رأسها على بحر ، وذيلها
وأجنحتها في القيافي والقفار ، حكمت الدنيا أجيالاً وأجيالاً ، فأشاعت العلم
والعرفان ، وأشاعت كذلك الزلنى والرياء .. ناسها منافقون ، ونفاقهم
أحياناً لا يذنب طريف وإن لم يجدوا فيه مذنباً يدبون على أرض بلادهم .
وهم بهذا النفاق أفسدوا حكمهم منذ فجر التاريخ ، وما أظنهم سيقهرون
طبعهم مهما يساقوا إلى التطبع بأخلاق الآخرين ...

ولا شك أن في حاضر نفاقستان مفاخر وأمجاداً تضارع دفاخرها
وأمجادها عبر مئات السنين ، وكان بودى أصور لك هذه المفاخر والأمجاد
غير أنني أخشى أن تظن أن كلمة الحق في حاضر نفاقستان مبعضها النفاق
الذى يسود دواثرها ويسيطر على قلوب بنينا وعواطفهم .

كم هي جميلة بلادنا ؟

من يزور نفاقستان يقف كثيراً أمام أمجادها وجمالها وسماحة طبع
أهلها ، فنفاقستان التي ظلموها فلم يفوها حقها في كتب التاريخ وسائر
الموسوعات ، عاشت آلاف السنين نور الدنيا وبهجتها بعلومها وأفكارها

وتفوقها في التعبير والطب والكيمياء .

كانت أمة بكل مقومات الأمة المتحضرة ، يوم كان الإنسان في أوروبا وأمريكا يعيش في الكهوف كما تعيش الرواحف والضاريات !

وكل زائر لآثارها يقف حائراً أمام هذه العبقريات التي بنت كل هذه الآثار ، وكل أثر له قصة ، وكثير من هذه الآثار سجل عليها تاريخ فترة من فترات الزمن تروي حكاية من حكايات المجد ، فمنها عرفنا أنها أول أمة آمنت بالتوحيد ، وكان الدين منذ ذلك التاريخ الموجه الأصيل لأخلاق أهلها ، فزان طباعهم ونحايهم مناحي الخير والفضيلة .

ولأنك لتدور نفاستان شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، فإذا هي رقعة خضراء تسحر من يراها ، ينساب نهرها الخالد في جلال يحمل الخير والرخاء ، كما حمل من آلاف السنين البهجة والاستقرار ، وقد كان هذا النهر يشور بين آن وآخر فتفسد ثورته شاطئيه ، ويفرق ماؤه الأرض ومن عليها ، فاستطاعوا بعلمهم أن يتحكموا فيه ، ويهذبوا من طبعه وإن كان قليلاً ما يخفو طبعه ، وأقاموا عليه السدود الشاهقات ، وحفروا له الروافد العميقة ، وسارت فيه المراكب والبواخر تحمل الرزق والناس وتحمّل الأخلاق والطباع ، وأنشئت على جانبيه وفي أحضان ووافده المدن العامرة ، فنشأت بذلك أمة كانت أول من بنى وأشاد ، وأول من قرأ وكتب ، وأول من غنى ورقص ، وأول من عرف الآخرة وغيثها .
وأول من زرع وحصد .

ثم غزت مراكبهم البحار لينقلوا حضارتهم تلك إلى مشارق الأرض ومغاربها ، ومضوا في تحضير الناس والجماعات حتى خلقوا من أصحاب الكهوف ناساً وجماعات .

ومن عجب أن جرت الدنيا آلاف السنين ، فإذا أولئك الذين كانوا يسكنون الكهوف يوم كان أهل نفاستان يسكنون الدور والقصور ، يتحكمون في مصائر هذه الأمة ، ويريدونها أن تسيخ الهزيمة والعار ، تلك الأمة التي علمتهم وحضرتهم فردوا جميلها عقوقاً وشرّاً ، وساحولوا جيلاً بعد جيل أن يذيقوها الذل والهوان ، وكانت في كل جيل من هذه الأجيال تنحصر على الذل والهوان .

وإني لأرى في أهل نفاستان اليوم ما أعرفه عن أهلها من آلاف السنين ... ناس من سجاياهم الاعتراف بالجيل ، ألمر في تاريخهم كيف أهدوا نهرهم كلها فاض أجمل فتيانهم قربانا ؛ لأنها تحية شكر واعتراف بالجيل ، لأنهم حتى يومنا هذا لا ينسون جميل من يسدى إليهم الجيل .

وهذا الكرم الذي يسيطر على طباعهم وهو أقرب ما يكون إلى السفة ، لا يزال يحكم سيرتهم في الحياة ، وإن الرجل ليقدم قوت عياله تحية لضيف قريب أو غريب .

وهذا الحب الذي يصفونه على كل إنسان وأحياناً بعبط ، لا يزال يملك عليهم خواطرمهم ويسرى في دماهم ويحكم سرائرهم .

وإنه العجب كل العجب ، أن ترى القوم هنا تن جوانبهم بالأسى .

سواء نزلت النازلة بمدو أو صديق ، فإن فطرتهم لا تعرف التشفى ،
فقد بكى خصوم الملك حين عزله ، وبكى خصوم « المير » الساحر ، مرة
حين هزم ، ومرة حين وافاه القدر المحتوم .

والله يا صاحبي ، إني لسميد أن أكون واحداً من هؤلاء الناس
الذين فطرهم الله على المودة والمعروف .

نفاقستان في ١٣ سبتمبر

صدرت اليوم صحيفة الأرقم الداهية وفي صدرها هجوم على السيد «عصر» بأن ، تهمة باستغلال الوظيفة وما أدرك من سلطان ، إذ حمل معه في عودته من سفارة في الخارج مائتل وزنه وغلا ثمنه ، وأن سيارات ضخمة كانت تنتظر مائتل في المطار ، وأن الطائرة التي هبطت بهذا كله قد أفرغته في السيارات التي مضت به إلى قصره ، وهناك وضعت الدولة يدها على الجبل بما حمل ؟...

وسميت صحيفة الأرقم الداهية هذه المصادرة (ظاهرة صحية) إذ أنها قد حصلت لثائب المير الخطير ، وأن هذه الظاهرة تعنى أن الناس في نفاقستان سواسية كأسنان المشط أمام القانون ، وفهمنا نحن من هذه الظاهرة الصحية أن «المير» الساحر قد غضب على نائبه ، وأن وراء ذلك خبيثاً لا يعلمه إلا الله ...

وانطلقت السنة التنظيم الطبيعي مهاجم نائب «المير» السيد عاصريان في حملة منظمة تستهدف تجريحه والخط من قدره عند مواطنيه ، وفي الحق أننا لم نكن نعلم قدره قبل أن تنشأ هذه الأزمة بين «المير» ونائب المير ..

وأخذ التنظيم يطلق الإشاعات في الرجل بالحق والباطل دون أن تتاح له فرصة يذود بها عن كرامته ، أو يفند ما ألصق به من اتهامات ، وفي هذا توخذ الدولة من مكنتها ، لأن كل اتهام — إلا في شريعة الغاب — يقتضى دفاعاً ولو كان المتهم من طواغيت الظلم والطغيان ..

ومضى التنظيم المسعور يهاجم الرجل ، فزعم أنه إقتاعى كبير ، وآية ذلك أنه ولد في بيت عريق ! وأنه لشيء تنفشته فيها شيء كثير من الترف ، وأنه بعد الثروة ملك قصرين ، أحدهما في حاضرة نفاقستان وثانيهما في ثغرما البسام ، وأن القصرين قد ازدحما بالرياش الفاخر والأدوات السكرية ، ولئن تجدلها نظيراً إلا في قصور الملوكيات من الأمريكان ، وأنه يستغل الدولة إذ جعل لتقلاته ست سيارات يقوم على خدمتها سبعة من السائقين ، والسائق السابع عين من باب الاحتياط فقد عرّض سائق من الستة أو يغيب !

ومضى التنظيم في حملته ساخرأعما يدعيه الرجل لنفسه من أنه ماركسى خطير ، مع أنه يستجلب لنفسه الفاكهة النادرة من الخارج وورد إليه ملابسه — حتى ملابسه التحتية — من لندن وباريس ! وهذا الذى يفعله نائب « المير » امتنان لعقيلة الشعب ، إذ كيف تستوى هذه الحياة الميسرة المترفة الرغبة مع الكتاب الذى ألفه — أو كتب له — ولسبه هو نفسه كما يقول التنظيم الطليعى — وفى الكتاب نظرات شيوعية تفرّض حياة التقشف وتوجب القضاء على التطلعات الرأسمالية التى تبجح القصور ومتاع القصور ولو على حساب العمال والفلاحين ؟ ..

وأخطر ما أذاعته السنة التنظيم الحداد ، أن أدوات الترف التى حملها الرجل معه وصادرتها الحكومة ، إن هى إلا هدايا من حكومة صديقة مضى يتزلف إليها . ويؤكد أنه رجلها . وأنه لها إن أرادت

غاية في نفاقستان ، لذلك أمر « الأمير » الساحر بهذه المصادرة ، وأزم
الرجل بيته ، وعطل كل ألوان الاتصال به ، وأطلق عليه التنظيم يقلبه
ويشويه III ...

ومن عجب أن يطلق التنظيم أنيابه في علصريان ، فعصريان نفسه رأس
هذا التنظيم ، وهو منشئه ومستقله وصاحب الأمر فيه ، ولكنه النظام الذي
كان يمكننا ، ومن سماته أن يأكل بيته ، تماماً كما يأكل خصومه ومعارضيه .
إذا صح ما زعمته أبقاى التنظيم الطبيعي في قضية علصريان ، فإنها
جريمة لا غفران فيها ، إذ كيف يحدث هذا العبث ولنفاقستان مشحنة
بالجرارح من عار الهزيمة ، ويذلل بنوها كل جهدهم وكل عرقهم ويثقلون
بالأحجار على بطونهم لتوفير الدائع والسحوت من أجل المعركة والتزود
بالسلاح والعتاد ، ويحدث ذلك من ما ركسى يدعو مذهبه إلى الجحد
والخشونة ولا يعرف الترف وميوعة الحياة ...

ولم يكن السيد علصريان وحده في ميدان الترف والبهجة وإشراق الحياة ،
إذ كان من بين الوزراء وزير للباليه والموسيقى والغناء ، طالب عقب
الطريقة مباشرة بمليون دينار وهي تكاليف مسرح للجديد ينزلق عليه
الراقصون والراقصات ، من باب الترفيه عن المواطنين الذين جرححت
عواطفهم الكارثة ، وما لها من علاج إلا هذا العلاج !! ...

يريد الوزير النائر الفاتر مسرحاً للجديد في الوقت الذي لم تحف بعد
دماء إخوان له استشهدوا في ساحة الوغى ، وتحالب دعاؤهم بالشر

لا بالرقص ، ويصرخ الوطن كله بالجهاد لا يهز البطون والأجساد...

ومن عجب أن تكون الحزينة بلسماً للعواطف ومكأة لبسطة النفس وراحة البال . فتقيم الحكومة بعد الكارثة بمائة يوم ، بالتنام ، مسابقة للجمال في « بلاج » معروف من ثغر نفاقستان في أعطاف حفل صاحب بالموسيقى ورقصات الغاب ، يحببه الشباب الخنثع حتى مطلع النهار وكأن الذين طوتهم الصحراء من جند وضباط لا يستحقون ولا سنة من حدادا

في الوقت الذي كان « المير » الساحر يتحر حزناً على مصير بلاده ، وتدميه الأمراض من الكد الذي أصابه ، كان أهل الثقة من رجاله يسيرون الطنافس والرياش أو يسعون لبيع يلادم في سبيل السلطان ، أو يفكرون في تشييد ساحات الرقص والمرح والبهجة والمرور ، أو يقيمون مسابقات الجمال بالدف والمزمار ، ولو كانت نفاقستان كلها تدمى عيونها من اليكام . لتلك الحزينة الكراء ، ولو كان في كل بيت شيد هنا أو شيد هناك .

يا صاحبي

لا تعيرهم هزيمتهم ، فإن هذا الشعب قد عرف النصر الحاسم في كثير من المواقع الخالدات ، وليس هذا الشعب فريداً أو وحيداً في ميادين الهزائم المنكرات ، فقد اندحر قبله الفرنسيون والألمان والروس واليابانيون والصينيون والإنجليز ، وكانت هزائمهم شاملة منكرة قاطعة مفاجئة ، فبر أنها شعوب حية قد استطاعت أن تسترد بحبوتها كل وجودها الضائع ، وشمخت برؤوسها حالياً ، وأصبحت بعد سنوات من الهزيمة والاندحار أغنى وأقوى مما كانت مرات ومرات .

أرجو أن تقرأ تاريخ نفاستان ، فجله في ميادين الرغى والنزال قدوة ، ومثال ، ودع عنك حكاية الهزيمة التي لحقت بهذا الشعب في فجر التاريخ من آلاف السنين ، فقد استعمل عدوهم المغير ما استعمله الأمريكيان في حرب اليابان ... استعمل القنابل الذرية ؟ ...

أليست قنابل ذرية أن يواجه جيش نفاستان ، وكله من المشاة الراجلين كتائب العدو المغير تستقل عربات تجرها الجياد ولم تر نفاستان من قبل العربات والجياد ؟ ...

ثم انظر بعد أن صنعوا عربات لهم ودرّبوا جياداً تجرها كيف كان نصرهم على عدوهم الشديد ؟ وكيف تحررت بجيادهم لا نفاستان وحدها ، بل تحرر كل ما حولها من شعوب !

وقد ساءنى أن خلت كتب التاريخ التى توزع على التلاميذ والطلاب من واحة العربية والحواد ، فقد أغفلها المؤلفون عامدين لأن فيها هزيمة يرونها عاراً لا ينبغي أن يسجل فى التاريخ ، وإنك لتعجب حين تقرأ كتب التاريخ عندنا فلا تجد إلا المفاخر والابجاد ، مع أن التكنولوجيا التى عالج بها أجدادنا آثار هزائمهم ، والأساليب التى اتبعوها مع عدوهم فيها قدوة لنا هذه الأيام ، وما أحوجنا إلى القدوة وخاصة فى هذه الأيام ...

إن الكتب التى تقدم للناشئة قد أغفلت كثيراً من حقائق التاريخ ، وهو أمر مقصود من السادة المؤلفين ، وهم عادة من المعلمين ، وهذا عيب خطير فى تربية الأجيال الصاعدة ، فغداً يكبر الصبية ويقرءون كتباً أخرى فيدركون كيف كان أساتذتهم يدلسون ! وإنه لامر محزن أن يهون المعلم المؤلف فتسقط الهالة التى له فى ضمير الشعب ، والشعب يراه وسولاً كما زعم شاعرهم الكبير ...

وما أظن الذين يحكون نفاقستان اليوم يضيرهم أن تسجل أحداث التاريخ كما رواها التاريخ الصحيح ، فإن فى العصر المظلم أو فى الهزيمة النكراء جوانب جديرة بالدراسة وفيها من العبر الشيء الكثير ، ويحسن أن يعرف الطفل تاريخ بلاده بلا تهريج أو تهويش .

معذرة ، فقد نسيت أن مؤلفي هذه الكتب من نفاقستان !

وإن العيب الذى أذكره لك عن كتب التاريخ ، تراه أيضاً فى كتب .

أخرى توزع على الصغار في مطالع كل عام ، وقد قرأت في كتاب حديثاً رائداً متمماً عن حياة العامل والفلاح بعد ثورة نفاستان ، ووصفاً جميلاً عن هذه الحياة في المصنع والحقل والبيت والقرية ، تماماً كما يعيش العمال والمثلاحيون في ريف الإنجليز والفرنسيين ... وهذا بالقطع تزوير للواقع الملموس ، وإنه لأمر خطير أن يقرأ الأطفال حياة لا يعيشونها ، فإن الأكرية الغالبة من هؤلاء الصغار من أبناء العمال والفلاحين ، وكيف يكون أثر هذا النفاق في عقولهم القاصرة ونفوسهم التي لم تفتح بعد للحياة ، وهم يقرأون هذه الأكاذيب في كتاب رسمي توزعه الدولة وفيه كثير من الأوصاف غير صحيح ؟ ...

وأذكر أني قرأت كتاباً يدرسه ابنى معنى بالتربية الوطنية ، وكان ذلك من عشرين عاماً ، وكان الكتاب يروى الجليل والجليل في حياة نفاستان منذ فجر التاريخ إلى الأيام التي نعيشها ، وكان هناك فصل عن ثورة مدنية اشتعلت في البلاد ضد الاستعمار منذ أكثر من خمسين عاماً برعاية شيخ عظيم وضعه العالم كله في صدر التاريخ ، فإذا بالأساتذة مؤلفي الكتاب يتحدثون عن الثورة في إسهاب ، ويذكرون أسماء من عاصروها وشاركو فيها إلا اسم الشيخ زعيم الثورة التي فجرها وقادها ونفاه المستعمر مرتين أثناءها ، وعاد إلى وطنه فأشرق الشمس بعودته ، فلما قضى مالت الشمس بضحاها ...

إن هؤلاء الأساتذة المؤلفين الذين ينافقون الثورة بتزوير التاريخ ، وتزوير الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي يعيشها التلاميذ من أبناء

للفلاحين والعمال ، في مقدورهم أن يتنوا ما شاء لهم الثناء ، ويمدحوا ما شاء لهم المديح ، دون أن يتورطوا في الكذب والخداع ...

لأنهم يستطيعون التزلف بكلمة الحق يسجلونها في المنجزات العظيمة التي حققتها هذه الثورة ، فإن هذه الثورة — بالرغم مما يراه خصومها فيها — زاهرة بكثير مما ينبغي تسجيله بحذق ومهارة ، فإنها لم تغير وجه نفاقستان وحدها ، بل غيرت وجه شقافستان وتوريطستان ، وعشرات من شعوب أخرى ، ولولا ثورتهم هذه ما تغيرت وجوه الحياة في تلك البلاد .

لقد كان د المير ، الساحر قدوة في الجهاد والكفاح ...

ثم كان لشجاعته وتحمديه قوى الاستعمار ، واقتصاره عليها بإصراره وعناده ، أعظم مثل لشعوب مختلفة مختلفة أذلها المستعمر وامتص دماءها مئات السنين ، فنارت هي الأخرى وطالبت بحقها في الحرية والاستقلال ولم تستطع قوى الاستعمار الضخمة أن تقف في وجه هذه الشعوب التي تأثرت ثورة نفاقستان ، وسارت سيرتها في الجهاد ، وأعلنت العصيان وتمردت على مئات من سني الذل والاستعباد ، وإذا هيئة الأمم تضم اليوم أكثر من أربعين دولة جديدة تحررت من الاستعمار وما كان يجري في ركابه من أدوات الظلم والاستغلال .

لقد كانت ثورتنا في هذا المجال ثورة رائدة بلا جدال ...

إن كتب التلاميذ يجب أن تتضمن مثل هذه الحقائق ، فهي تشرىف
لنفاقستان وأهل نفاقستان ، وحسنه « للبر » الساحر إن أردنا حساب
الحسنات ، أما أن تحشى المكتب ، وحشى كتب النحو ، والجغرافيا
والهندسة والحساب ، بالدعاية الفجة والتزلف « للبر » نفاقستان ،
فذلك ليس علماً ، وليس له من نتائج في الدرس والتعليم إلا
تنشئة الأجيال على الفساد ، وتربيتهم في أجواء من النفاق
والرياء ...

نفاقستان في ٢٦ سبتمبر

بكد كل جواب لرسالة من رسائي يتضمن الف اعتراض على ما كتبتك من أحوال بلادنا الجميلة، فرة تنهى بالنفاق، وقد فوتها لك، وطلبت منك مازحاً ألا تنسى أنني أعيش في نفاقستان ...

ثم يحيى اليوم فتعيب على نفاقستان تدخلها في شؤون ما حولها من دول وشعوب، وتقول كما يقول خصوم المير، الساحر الخطير، أما كان أولى بنفاقستان أن تغلق على نفسها الأبواب، وتوظف مئات الملايين من الدنانير التي بذلتها هنا وهناك لصالح أهل البلاد، أما كان أجدى عليها أن تستغل هذه الملايين فتطور بها ريفها مثلاً أو تزيد من الصناعات أو تفتح المدارس والمشافي والمستوصفات، أو تبذل هذه الملايين في استيراد ما تحتاج إليه من حاجات ترفعها إلى مقام الدول المعاصرات، أو تعمل بهذه الدنانير على خفض الأسعار التي يصرخ من ارتفاعها لا الفلاج والعامل وحدهما بل يخرج منها أهل اليسار ..

وأقسم إنني فيما كتبت لك لا أتفق أحداً أو أزعم لقيادة اليوم فضلاً أبداً، وإنما أقسم إنني أسجل ما أراه وأحس أو أسمع به من هذا أو ذاك، ولو شئت أن أمضي يوماً مع حملة القمام وفريق الطبلة والمزمار، ليكنك واحداً ممن استرخت حياتهم ومضت لعباً مقبلاً، لا يفيقون من السعادة ولا يحسبون أبداً حاجة أو تراهم يوماً في حرمان.

إنما كتبت لك كراقب معاصر لحياة هذا الشعب قرابة خمسين

حالاً ، ورأى في دنياه كثيراً من الهم والبلاء ، واعتصرته أحداث
وجيمة عامة وخاصة ، ولكن شيئاً من ذلك كله لم يترك في نفسى بنصاً
لهذا البلد أو كراهية لناسه حتى أولئك الذين أساءوا إلى فى عنف وقسوة ،
لم ينطو صدرى نحوهم على سخط أو ضغينة ، ويبدو أنى قد تطبعت
بطباع سائر المواطنين في نفاستان ، فإن ذاكرتهم ضغينة لا تخزون
الإساءات أو تيجر الإهانات ...

وأعود إلى مناقشة ما ذهبت إليه وميمته السياسة الفطيرة التي
التهيجناها بالتدخل في شؤون الجيران ، والتي ترتب عليها إسراف في
الاموال العامة كانت نفاستان أحق بها من أولئك الجيران .

وأحب أن تفهم ، أنه مهما يختلف الناس في أمر هذه السياسة ،
فإن ذلك لم يعطل نهضة البلاد في كثير من جوانب الحياة ، ولا عليك
من آلاف الملايين من الدنارات التي اقترضتها نفاستان ، فإن خيراتها
كفيلة برد الدين طال الوقت أو قصر الزمان ، وعلى أى حال فإن هذه
البلاد لم يعض عليها جبل إلا وكان الاقتراض سمة من سمات حاكها ،
وإن ترتب على بعض الديون غزوها واحتلالها في يوم من الأيام ...

ثم أنظر إلى العاصمة فأجدنى في أحياء شتى منها قد ضاعت
قسياتها المضطربة القديمة ، وأرى جديداً قلب الأشكال رأساً على عقب .
فأنشئت ميادين فسيحة وشوارع عريضة وشيدت الناطحات الشامخات
وخاصة تلك التي تطل على نهرهم الكبير ، وقامت الكبارى

فوق الشوارع والميادين يستخدمها الراجلون حتى لا تؤذيهم
زحمة الطريق .

ثم أنشئت عشرات من دور السينما والمسارح إلى جانب الإذاعة
والتليفزيون ، وهي كلها وإن كانت من ملامى الحياة إلا أنها وسيلة
تضاف إلى وسائل التثقيف والتعليم ، وشيدت مئات المدارس بالإضافة إلى
الجامعات والكليات التي افتتحت في معظم المدن الكبيرة لاستيعاب
عشرات الآلاف من أبناء بفاقستان ، وجرى طريق شعباني مسفلت على
شاطيء النهر يمسك بالعاصمة من الشمال إلى الجنوب .

ولهذا الطريق قصة وتاريخ ، فقد قدمت الثورة وزيراً سابقاً ناهياً
رائداً من رواد هندسة الري ذا سمعة عالمية ، قدمته إلى محكمة الغدر ،
لأنه غدر بالوطن فأنشأ نحو عشرين متراً من هذا الطريق ، وسخروا
منه حين قال إنها تجربة لتهديب النهر العظيم لفجاءات الثورة المباركة
التي عاقبت هذا الوزير فلم تهدب النهر لحسب بل أدبته تأديباً وقست
في هذا التأديب حكته بهذا الطريق الشعباني وطوله نحو عشرين ميلاً
أو يزيد ؟

ثم ماذا يا صديقي ؟

أنظرُ فأجد القوم — بالرغم مما ضاع في مشاكل الجيران — قد
أقاموا السدود العالية والمجمعات الصناعية الضخمة ، وقبذل اليوم
الجهود لتخصير نحو خمسة آلاف قرية وتزويدها بالماء والكهرباء ، وبذلك

يرد عليك العهد الجديد فيما سبق أن عتبته على القوم في رسالتك بأنهم اهتموا بالحضر وأهلوا الريف ، وزعمت أن ما صرف على الجيران ، البعيد منهم والقريب ، كان قيناً بأن ينقل ويف نفسانستان إلى شيء قريب جداً من ريف الإنجليز والفرنسيين والأمريكان .

قد تستطيع أن تعيب في قضية أنوفنا التي دسناها في شؤون الجيران ، الطريقة الغوغائية التي اتبعت في سياسة التدخل عند هؤلاء الجيران ، فقد وظفنا الجيش ومال الشعب ورجال المخابرات في محاولات مضنية لقلب نظم الحكم هنا وهناك ، ضد القريبين من الجيران وعند البعيدين آلاف الأميال ، وذلك سعيًا وراء حبيت يعم الآفاق ، وجرياً وراء سلطان على المنطقة يزوى بسلطان حكامها من ملوك ورؤساء وأمراء ، وكنا للأسف الشديد نخطب في الناس وندعو إلى الثورة على هؤلاء الحكام ، ونحاول أن نشد من شعورهم وننتف ذقونهم ١١ ...

ولم تجد دعوتنا بل ذهب في الهواء وضاع ما لنا ورجالنا هباء في هباء .. ومن سخرية القدر أن أولئك الذين أردنا يوماً أن نفتف ذقونهم كانوا في صدر من أقال عثرتا حين هزمنا في حرب الصحراء ، وأقبلوا بملهم يقدمونه لنا ، وعنادهم يزودون به جيشنا ، ونقطتهم يضعونه تحت تصرفنا ، وبلادهم يفتحونها لمن يريد منا تجارة أو عملاً ، وكل شعرة فيهم تنطق ببلبهم ، وعلان عن أرومة أصلهم ، وإنهم لجديرون بأن يكونوا حيث هم ، سدة الدين وملاذ المؤمنين .

ترى هل يكشف كل ما ذكرته إشرافة الحياة في تافغانستان؟

إن عهد المير ، الجديد الذي أراد أن يصحح الصحيح قد بنى جيشاً قوياً لا يتطلع ضباطه إلى وظائف المدنيين ، بل تروى أبصارهم إلى نصر يرد على الوطن كرامته ويعيد إليه ما سلب من أرضه الغالية ، ومعظم جنود هذا الجيش من الشباب المتعلم بينهم فئة كبيرة من المثقفين ، تفيض وطنية وتدين بالولاء المطلق لبلادها وحدها ، لا تشرك في هذا الولاء أحداً ... شباب حر لا يعرف الخوف ، فإن أشنع ما يواجه الجيش أن تؤلف فرقة من مواطنين يحكمهم نظام بيت الخوف في قلوبهم ، ويهددم بالسجون والمعتلات ويحاسبهم على الإشارة والمهمة ، ويجعل من الابن عينا على أبيه ومن الأخ رفيقاً على أخيه ، ويجعل بذلك أواصر الأسرة ، ويقطع عروق المحبة ، وينشر بين الجماعة الكراهية والبغضاء .

إن العهد الجديد الذي انتفض ليصح الصحيح يعلم أن الشعوب لا تحارب بقوة وإيمان إلا إذا كانت تحارب من أجل فكرة ، ومن أجل الذود عن مثل تؤمن بها ، وفي سبيل الحفاظ على حريتها وكرامتها ، وسعياً وراء التمكين للحرية والعدالة ، وما حارب شعب واتصر افتقد هذا كله أو بعض هذا كله ...

ولنا لنقرأ التاريخ ، فنجد أن النصر دائماً عتق في البلاد التي يعيش مواطنوها أحراراً في صحافتهم وفيما يكتبون من كتب وفيما

يذبحون من آراء... والمزيمه دائماً صنو لكل شعب يحكم بالحديد
والنار ويسيطر على حياته الخوف... والمثل قريب، فقد انتصرت
لإنجلترا وفرنسا وأمريكا على إيطاليا وألمانيا واليابان في الحرب
الآخيرة، والدول الأولى مجتمع مفتوح، والثلاث الأخرى مجتمع
مغلق كثير المعتقلات والسجون...!

صدقني أيها العزيز، إنني لا أعظم عهداً مضى ولا أوافق عهداً يقول
صاحبه إنه يريد أن يصح الصحيح...!

نفاستبان في ٢ أكتوبر

لقد تسلمت المجموعة التي أرسلتها من صحف شقاستان ، وأخذت أطلاعها بنهم ، وقد كدت أصاب بالذوار وأنا أقرأ مقالاتها وأقرأ فيها خطب وتصريحات المسؤولين من رجالكم . عبارات وتعبيرات وألفاظ ما أنزل الله بها من سلطان ، واشتقاقات من اللغة غريبة مشدودة من شعرها كما يقول الفرنسيون .

وقد استوقفتني وصف لدولتكم يلح في نشره كل يوم كتابكم ، فهم يزعمون أنها وحدها الدولة ، التقدمية ، وليس لها نظير في دول المنطقة ولا يطاولها في ، التقدمية ، حتى دول الغرب من أوربا ، إذ أنها — هذه الدول جميعا — دول ، تأخرية ، ؟

ولا أفهم أن تكون دولة تقدمية تلك التي بشرد فيها الأحرار ، وتلجم فيها السنة المثقفين ، وتقص في الأفلام إلا أفلام المأجورين من حملة الطبول والمزامير ! .

ثم تقول صحافتكم في غير حياء أو استحياء وهي تدل على صدق نظريتها ، إن إنجلترا دولة ، تأخرية ، لأن على رأسها ملكا وتؤلف حكومتها في النوادي والبارات ! مع أن هذا الملك وهؤلاء الحكام جميعا يُنتقدون في الحداثة العامة بأقذع ما يتقد به إنسان ، وتقف الشرطة على أمتار من النقد الجارح المقذع ، السفه في بعض الأحيان ، لالتبعض على الخطيب وتجره إلى عقر الشرطة من قفاه بل تقف على بعد أمتار لتحمي هذا الخطيب من خصومه إن أرادوه بسوء ...

ولا أنهم كيف توصف هذه الدولة بالتأخرية ، وكل يوم يصدر فيها مقال أو منشور أو كتاب ينقد بعض النظام السياسى أو الاجتماعى أو الاقتصادى ، مع أن هذه الدولة بنظمها جميعاً فى صدر العالم سياسة وكياسة ومالا وجاهاً... ولكنها الحرية التى تسمح لكل مواطن بأن يعبر عن رأيه ، سواء كان رأياً صائباً أو خاطئاً . وبصرف النظر عن كونه رأياً هداماً أو بناء ، فالحكم هنا للرأى العام الصالح ، والقانون الذى ينظم أمور الناس ، وليس للحاكم المطلق الذى لا منطق له إلا منطق العصا والكرىاج ! ...

إن هذه الألفاظ والمعارات والشعارات التى تزدهم بها صحفكم صباحاً ومساءً لثبير من قضايتها الغثيان ، وبما يزيد الأمر سوءاً أن كل أدوات دعايتكم من إذاعة وتليفزيون وأوراق وكتب ، وحتى الكتب المدرسية ، قد حشيت بهذا الكلام الذى يدير الرموس ولا تفهم منه الرموس شيئاً...

لأنهم — عندكم — يرون فى نظامهم أنه القدوة والمثال . ورونه نظاماً تقدماً ! ومن العجب أن يوصف نظام بالتقدم وهو يؤثر الجاهل على العالم ، والمريض على السليم ، والضعيف على القوى ، والمنبت على الحارم ... ويعتبرون هذا النظام علاجاً لأوجاع الشعب ، وأنه الدواء الوحيد المفيد إن كان الغرض البرء من السقام... وصدقنى أنهم يعالجون المعدة بدواء الميعون ؟ ويبترون الأذن ليشفوا اليد من السرطان ! ...

إن شعبكم يعيش في متاهات ، يقوله له الحاكم شيئاً ويرى الشعب الواقع شيئاً آخر ، يقول إن صحافته حرة لأنها صحافة الشعب ، ثم يندر أن نجد في صحافة الشعب هذه ، مقالاً ينقد وزيراً ، كأن وزراءكم منزهون عن الخطأ ، لا يكبر أحدكم في حقوة ولا يقع في غلطة ، مع أن مفواتهم وأخطاءهم ، وأحياناً جرائمهم تقتلع العيون .

ويقولون إنهم حرروا الصحافة من الاحتكارات . فإذا هذه الصحافة تحتكرها فئة من الناس لا يدخل عليها دخيل ، فهذه الفئة وحدها قد فرضت على الناس فرضاً لشكون هي عين الشعب ولسانه وأمله ، العين التي لا تبصر واللسان الذي لا يتطق ! والأمل الضائع في الشعارات وللتماهات !

والله الله لو شذ صحتي منهم برأى يخالف الشعارات ، فإن قرار فصله جاهز ، ومقعده في البيت حاضر ، وليس له بعد ذلك رأى يديه ، فقد حطم قلبه وطوى قرطاسه ، وأصبح شأنه شأن من أوى النفاق من من القادرين على الكتابة والتجويد فيها ، وحرهم نظامكم هذا الحق لأن الرؤى عندهم واضحة ، والنظام لا يرحب بالمبصرين الذين لا تفرهم الشعارات ولا تضلم المتماهات . . .

صدقني ، أفنى لم أفهم معظم المتالات التي تضمنتها الصحف المختلفة التي أرسلتها إلي ، وبالرغم من أنني محسوب على المثقفين في ثقافتان الذين حدسوا وقرأوا العمر كله ، من الكتب العباوية إلى ماركس ولينين ،

فإن فهمي لهذه المقالات قصر عن استيعاب مضمونها لما فيها من حشو الكلام وغريب العبارات.

بالله هل فهمت ما يعنيه أحد كتابكم بقوله إن شعبكم يعيش في تلاحم عضوى بين الأمية والاشتراكية، وأن المصالح الجذرية يجب أن تطوى تحت لواء سياسة اشتراكية طبقية أمية تحقيقاً للنضال التحررى ؟.....

ولست أدري لمن يكتب هؤلاء الصحفيون إذا كانت الصفوة الواعية في المنطقة يدق عليها فهم الأسلوب العاجز عن بيان محتويات الصدور ؟ فكيف يفهم شعبكم وشعوب المنطقة هذه الطلاسم وثلاثة أرباع السكان فيها أميون لا يقرءون ولا يكتبون ؟ ...

ولأن هذا أسلوب صحافتكم وإذاعاتكم وتليفزيوناتكم وبعض كتبكم المدرسية ، فإن كل هذه الأدوات لم تؤثر في نفوس الناس ، ولم تغفل أفكارهم إلى جديد أو تهربهم إلى نظامكم العنيف ، ووقفوا حيث هم جيلاً أو بعض جيل يقرءون ولا يفهمون ، وقد لا تفوتهم الكتلة والسخرية بهذا الذى يقرءون ولا يفهمون ! وبقى صحفيوكم وأدباؤكم ورجال الدعاية عندكم معزولين عن الكتلة الشعبية الضخمة ، لأن لغتهم غير لغة الناس ، وأشد اللغات تأثيراً في النفس هى اللغات التى يفهمها الناس .

أحمد الله أن هذا الذى يجرى عندكم لم يعد له مكان في حياتنا ،

فإن الرموس الكبيرة التي تدير صحافتنا قد مارست الصحافة قبل قيام الثورة ، وكان بعض هؤلاء الصحفيين من أعلام الصحافة في عهد الملك البهيض ، وكانوا يمثلون الأقلام الحرة ، ولم يرضوا توجيهاً فيما يكتبون أو يقبلوا أن تخضع أقلامهم لرقيب ، وقد فضل بعضهم التعرض لأشد الأذى على أن يكون بوقاً للقصر وأذنا به ، وبالرغم مما أغروهم به من مال أو رتب ونياشين ، فقد أبوا أن يكونوا مطايا السلطان ، فسودرت صحفهم وقصفت أقلامهم ، وبعضهم دخل السجون ...

إنما أعنى من أعرف من كتاب الصحف ، ولا أعنى تلك الناشئة التي ظهرت في غفلة من الزمن ، وحاولت أن تسيطر على صحف نفاقتان وقتاً ما ، بالعبارات الغريبة ، والأفكار التي تنفر عامة الناس فضلاً عن خاصتهم ، وتلبس رداء النازية يوماً فتدعو إلى حمامات الدم ، والماركسية يوماً آخر فتحض على الكفر بالله والعبادة بالله ، وأن هؤلاء الحرافيش ، كما يسميهم مؤرخهم القديم ، قد استطاعوا أيام شعوريان وسمشريان وأتراهما من عمالة العنف والظلم ، أن يصدروا الصحف وينشروا فيها ما يحلوهم من السخافات ، والتفاهات ، وعبارات المتاهات ، وفارغ المعنى من الشعارات ...

ثم اختفت هذه الأقلام الناشئة بأفكارها الصيانية وشعاراتها المستوردة حين صح الصحيح ، وبدأت نافذة الحرية توارب ثم فتحت

«خلفه» منها ، وكم أتمنى أن تفتح «الخلفه» الثانية ليدخل الهواء نقياً والنور
ساطعاً لتُطردَ خفافيش الظلام، ويوقظ النيام، ويصح الطريق للعلام،
وتنسل النفوس مما خلفته بطانة السوء من أدران ، ويرفع الوطن من
هذا الخفيض ، ويرد إلى مكانه العتيد حيث كان وحيث يجب أن يكون،
وطن الذوق والرفقة . والحرية والمدالة ، وبسطة الرزق ، والإيمان
بآله ورسوله ، وكل جميل وجليل .

نفاقتان في ٩ أكتوبر

كان يجب أن أورد لك هديتك من صحف شقائقان هدية من نفس الحقل ولكنها من التراث الحديث الذي يشغل اليوم كل إنسان ، وما أنذا أبعت لك بكتاب صدر أخيراً عن جانب مشرق من حياة « مير » نفاقتان الراحل ، الذي كان في الصدر من جماعة حكم معها نفاقتان نحو ثلاثة أعوام ، ثم انفرد بالحكم خمسة عشر عاماً بعد أن نهي أول (مير) للبلاد ومعظم زملائه في الجهاد ؛ ومضى يحكم على مسؤوليته وحده ، تعاونه مؤسسات دستورية مستحدثة ، أفسدت طمعها وأسقطت من اعتبارها مراكز القوى ، التي آبت — منذ البداية — أن يكون لهذه المؤسسات أي دور في سياحة نفاقتان ...

لقد كان اختيار الشعب لممثليه يفرض على الشعب فرضاً ، فلا يرشح مواطن لشرف النيابة عن بلاده إلا إذا أجازت البطانة هذا الترشيح ثم تستقنئ الأمة فيمن اختارتهم بطانة السوء ، ولم تكن الأمة تملك إلا أن تقول « نعم ، نعم ، ... » وبقولها نعم ، تقطع جبهة قول كل خطيب ...

وكي تفهم الكتاب ، يجب أن تعلم الرأي في مؤلف الكتاب ، فهو من صحفيي المدرسة القديمة ، إذا قيسن الجودة والقدم بسنوات العمل إذ عاش صحفياً نابهاً لامعاً أرقم قبل تفجير الثورة بسنوات وسنوات.

ويزعم خصومه أن صيته يجمع من صلاته « بالمير » الساحر ، وأنه

استغل هذه الصلة ، فاحتكر الاخبار الضخمة المثيرة لصحيفته وهى أقدم صحف نفاستان ، وكان ينشر فى صحيفته هذه أفكار « المير » قبل أن يضعها « المير » موضع التنفيذ ، وهذا الذى يقولونه عنه شهادة للرجل على « شطارته » وليست مأخذاً فى تاريخه ، فلم يكن نابهاً ذكياً قارحاً ما استطاع أن يبلغ من قلب « المير » هذه المكائنة ، حتى ليؤثره « المير » بكل ما يقويه ويذكىه ويضعه فى القمة من صحفى نفاستان بل يطلب إليه أحيانا أن يدبر أمره فيما اعتزم من أمور ، ويأخذ برأيه فى اختيار الوزراء وكبار العاملين ، ويصفى بالمودة لمشورته وهو يتبهاً لإصدار القرارات وسن القوانين ...

وقد زعموا أن فيه شراً . وينكر ذلك أصفاؤه فيزعمون أن الرجل حتى فئة كثيرة من رجالات الماضى وأحرار العهد القديم . حمائم بصلته تلك من طفيان ممشريان وشعوريان وأصحابهما من ذوى السلطان فى ذلك الزمان ، وحفظ عليهم ماء وجوههم بعد أن صادروا عقاراتهم وأملاكهم ومصاغ زوجاتهم وكل ما يملكون ، بنية أن يعيشوا حياة التسول أو يموتوا جائعين .

ولا نستطيع أن ننكر فضل هذا الرجل على الصحيفة التى تولى شئونها ، فقد جاء - كما جاء مؤسسوها من قبل - بمجديد لا يعرفه الجيل وخطط لها تخطيطاً بديماً فى الإدارة والتحرير ، وبني لها داراً ضخمة ضمت أحدث آلات وأدوات الفن الصحفى الاصيل ، حتى ليندر أن

يكون لها في المنطقة قرين أو نظير ، وأصبح البناء الشامخ مزاراً للمواطنين ، وموقعاً سياحياً يختلف إليه الناس من كل فج بعيد . لبروا أنراً في هندسة البناء والتميز وفي ميادين الفكر والتوجيه .

ولا شك أن صلة صاحبنا بالمير ، كان لها أثر ملموس في استقلال الرأي الذي تفرد به دون زملائه ، والنظر إلى موضوعات في سياحة الداخل والخارج ما كان لغيره ، مهما أوتى من شجاعة ، أن يطرقها أو يعالجها أو حتى يدور حولها ، وقد أكد بذلك مقام الصحيفة عند قرائها ، وأبرز من جديد رسالتها ، فقد كانت هذه الصحيفة ، في سنوات ما قبل الثورة ، لسان الدولة ورسولها الرسمي عند المواطنين .

وفضلاً عن ذلك ، فإن هذا الصحفي أديب مثقف على علم وفهم بمجريات أمور العالم ، وهي صفة اكتسبها قبل الثورة بالمهام الصحفية الكبيرة التي كلف بها صائفاً وشاقياً ، واطلع أثناءها على حياة الأمم والشعوب بل أكثر الأمم والشعوب ... والدنيا كتاب ، وكل بلد صفحة فيه ، وما أكثر ما قرأ هذا الكاتب من صفحات !

وأما زعيم بأنه الصحفي الوحيد الذي لم يتأفق أحداً قط في عهد المير الراحل الكبير ، وفيه النفاق وهو الصديق القريب من قلب د المير ، ثم هو مؤمن شديد الإيمان بكثير جداً بما كان يراه د المير ، الساحر في سياسة البلاد ، بل ربما كان له نفسه دخل فيما صدر من قرارات غيرت وجه نفاقستان ، بل لملي أزعج صادقاً أن هذا الصحفي كان يقف ببابه

لثائقون ، يترضونه ويترلفون إليه ، بعد أن عرف الناس ما كان له من مقام مقدور في اختيار الوزراء والتميين في الوظائف المرموقة في البلاد .

لملك تدهش من هذا البيان الطويل عن مؤلف الكتاب ، ولكنك لا تعلم أنه حين يكتب تاريخ هذه الفترة من حياة البلاد ، فسوف يكون لهذا الصحن من السيرة فصل طويل ، فقد عاصر فيها دنيا نفاستان منذ الهزيمة الأولى قبل خمس وعشرين سنة حتى الهزيمة الثالثة منذ ست سنوات ، وكانت يده في « المعجين » معظم ذلك الزمان .

أما الكتاب فيتحدث عن الجوانب المشرقة في صلة « المير » الراحل بأترابه من العظماء ، ويكشف حقائق جديمة في تاريخ « المير » الساحر عرضها صحفينا عرضاً رائماً كأمر طاه في كتابة السير وتحليل الأحداث أجل تحليل !

ولا أريد أن أحدثك عن محتويات الكتاب ، فهو بين يديك ، وستقر معي أنه جدير بالقراءة ويستحق منا الانتباه الكثير .

وقد أعلن الكاتب الأديب أنه سيتوافر على إنشاء تاريخ « المير » الراحل الخطير وطرائق نظره للأمر ، وسياسته في معالجة شؤون الداخل التي غيرت مفاهيم الحياة في نفاستان ، وإليه لقادر على ذلك بما تهيأ له من ظروف مكتبته من معرفة كل شيء يدور حول « المير » ، الصدق

والكذب . . . العسك والظلم . . . صفائر الكبار وكبار
الصفائر . . .

وكم أنا مشفق على صحفيين من تأليف هذا الكتاب . . . أنه سيرحنا
بفصول عن القمر والشمس ، فهل في مقدوره . أن يصف لنا ما أصابها
من خسوف وكسوف ؟

أنه سيسرسل في قضايا الحرية التي نقلت شعبا من الاسر إلى الانطلاق ،
ورفعت هامات المواطنين بعد أن حرزتها من الذل والاستبداد ،
فهل في مقدوره أن يفصح كيف يتفق استرساله المشرق في قضايا الحرية
مع إفراج « مير » نفاستان الجديد عن آلاف السجناء والمعتقلين
السياسيين ؟

وهل يكشف استرساله الممتع في قضايا العدل ، قصص التعذيب
التي لقيها أحرار نفاستان ولم يشهد لها التاريخ مثيلا إلا في حكم
النازيين والفاشينيين وحكم قاسي القلب الطاغية ستالين وصفيه برياق قد
بلغ عدد ضحاياه بضعة ملايين ؟ . . .

وإذا كتب صاحبنا الصحفي النابه الذكي الأرقم هذا الكتاب ،
وطبل للقمر وغنى للشمس ، وذكر العدل ومقوماته ، والحرية ونسماتها
وتحدث عن النهضة الشاملة ، وفسر العبقريّة النادرة ، وبعد بما كتب
إلى السماء ، فهل ياترى يصح الصحيح ويؤذن لنا بنقد هذا الكتاب ؟
ولو في كتاب . . .

يقولون إن في تفاقستان اليوم تكافؤ فرص ... ويقولون أيضاً ،
إن الناس فيها سواسية كأسنان المشط ؟ ...

فليكتب صديقنا الذكي الفطن ما يشاء مدعماً ما يكتب بالوثائق
والإسناد ، فمن قادرون أيضاً على الكتابة ولن تعوزنا الوثائق
والإسناد ، بل ما أكثر ما تحتوى عليه جيبتنا من وثائق وإسناد ! ...

نفاقستان في ١٦ أكتوبر

، عدت أمس من وردستان ، بعد زيارة خاطفة استغرقت يوما ،
فوردستان كما تعلم ، على بعد ساعة بالطائرة من نفاقستان ، وأنا دائما
مشوق إلى زيارة هذا البلد الشقيق ، ولولا مطالب الحياة ما ترددت في
قضاء شهر في ربوعه الجميلة ، فأنت في وردستان تستطيع أن تتنفس
دائما هواء نقيا يحمل لك الصحة والعافية عبر البحر والجبل ، وأنت
في وردستان تعيش مع قوم لا يعرفون الخوف ، بماملين حتى لتنظيم
من نفاقستان ! عندهم حصيلة ضخمة من عبارات الترحيب ، وفي هذه
العبارات حرارة أحيانا ، إلا أنها في أكثر الأحيان تلقى بلا وعي
أو تفكير ...

و كل شيء في وردستان ، محبب إلى النفس والقلب ، فالجمال طيبة
هذا البلد ، والكرم - إذا صح الكرم - طبع فيه ، وهم يأخذون
الحياة في سعة وترف ، ولم يكن ذلك دأبهم من عشرين عاما ، فقد
كانت العاصمة مثلا - أشبه بقرية جميلة ، تفاخر بخمسة ملاه وبفندقين أو
ثلاثة ، وكان أجمل ما عندهم فاكهتهم ، ثم حدث في السنوات العشرين
الماضية أن أثرت النظم السياسية التي سادت نفاقستان وشقاقستان
ونوريطنستان في تطور هذه القرية الجميلة . إذ اعتبلت الفرصة وفتحت
مبدرها لكل ألوان الأنشطة التي قضى عليها في تلك الدول الثلاث ،

سواء كانت فكرية أو اقتصادية أو اجتماعية، فانتعشت القرية واتسعت آفاقها ، وتطورت إلى مدينة صاحبة لا تسام ، حرة لا تعرف العسف والظلم ، يتعايش فيها الناس مهما تختلف نظرتهم السياسية أو الاجتماعية. أو الدينية ، وإذا بنا نهرب إليها كلما أعوزنا الهواء النقي أو السكينة الحرة ، أو السعي وراء الرزق العريض .

ويوجد اليوم في عاصمة وردستان ، أكثر من مائة ملهى ومثلية من الفنادق الفخمة ، وتدب فيها حركة تجارية منقطعة النظير ، وتضم على صفر حجمها وقلة سكانها ثلاث جامعات ، ويكاد كل مواطن فيها يملك سيارة . وإن شوارعها أثناء النهار لتسكاد أدوات النقل بها وزحمة الناس فيها أن تحجب الضوء والهواء . . .

وما رأيت في حياتي أخطر ولا أذكى من ناس وردستان . فهم يعيشون في نظام سياسي فريد يرتكز إلى الدين . فلرئيس الدولة مله ، ولرئيس الوزارة مله أخرى ، ثم توزع المناصب الكبيرة والصغيرة الأخرى حسب المذاهب والأديان ، وتمضى القافلة في ضوء هذا النظام الفريد الذي لا تعرفه أمة من الأمم ولا نظير له في أي مكان .

ثم تجدد في وردستان جماعات تناصر نفاقستان ، وأخرى توازر شقاقستان ، وثالثة تدعو إلى توريطنستان ، وتمده هذه الدول تلك الجماعات بالمال لتنشئ المؤسسات الصحفية الضخمة ، وتلشر اليكيب

والمطبوعات المختلفة ، تبشر بمذاهب هذه الدول ، وتقوم عند لزوم بتأجير الجماعات لتتظاهر في الشوارع ، وتهتف للدولة التي استؤجرت كالتفاف لها ، وقد يتطور الأمر بين المأجورين لهذه الدولة أو تلك ، وتستخدم المراكب بينهما حتى ينفذ الدم ويسيل ، ويضطر جند الحكومة إلى التدخل لفض المراكب وإعادة النظام .

وبهذه الشطارة نجح صحفيون مغرورون ، وأثرى متعهدو الجماعات المأجورة وعملاء السفارات الثلاث ، وبهذا الذكاء عم الرخاء وردستان بما تدفق عليها من ملايين الملايين من الدينارات ، وانفتحت على الدنيا وفتحت لها الدنيا صدرها ، وكادت أن تكون واسطة المقد في عراصم دول المنطقة من خليجستان إلى محيطستان...

وقد وهب الله وردستان طبيعة لم يهبها لجيرانها ، إذ تقع على بحر كبير ، وتعيش في أحضان الجبال ، وتزخر بالقواكه النادرة والهواء العليل ، وقد جعلوا من هذه الجبال منازل للسياحة والأفيس والبهجة ، وما يصحب ذلك عادة من متاع حلال أو متاع حرام ... !

ووردستان « بورصة » المنطقة في الأخلاق والتجارة والصناعات الصغيرة ، والصحف والمجلات ، وتزوير كتب الغير وبيعها بأرخص الأثمان ، وسوق مفتوحة للصادرات والواردات ، وعالم مجنون بالمال والطعام ، حتى لتبلغ المشبهات التي تسبق طبق الطعام خمسين أو ستين صنفا ، كل صنف منها يفنيك عن الطبق الاصيل .

وليس في وردستان محظور أو ممنوع، وليس في طبيعهم وسط .
فالبخيل منهم ، شيلوك ، والكريم ، حاتم الطائي ، والمؤمن متوكل .
ترمناً لا تجده حتى في « إسلامستان » ، والجيسل الجديد متحرر تحرراً
تتبار معه القيم والأخلاق منهم ناس يرتبطون في أعمالهم بكلمة
تخرج من أفواههم ، وناس يأكلون مال النبي وإن تحصنت قبلهم بألف
توقيع وربطتهم بألف ميثاق ! . . . ناس خفاف الظل كأنهم من
نفاقستان ! وناس ثقلاء على القلب والعين لا تطيق ويحجم مهما يكن .
فصيبهم من شفاقية النفس وسلامة الضمير .

وتزدحم وردستان بأنماط من البشر . بعضهم لاجئ سياسي ،
وبعضهم نازح للعمل أو التجارة ، وبعضهم هارب من وجه العدالة ،
وكل هؤلاء يمدون الحماية والرعاية ، ويمشون مع أهل وردستان في
سلام وأمان ، فما توافر السلام والأمان مثلما توافر في وردستان . . .

لعل قد أطلت عليك ، وأنت تعلم بعض ما حكمته لك عن هذا البلد
الحبيب إلى النفس ، القريب إلى القلب . . . هذا البلد المعجب الغريب
الذي لا يمكن أن يكون له مثل في دنيانا ، فأنت تدهش لنجاح بنيانه
السياسي القائم على المذاهب والديانات ، وتدهش لتفوقه المالي وليس
فيه أنهار ولا خامات ، وتعجب لاستقراره الاجتماعي في الوقت
الذي اجتمعت على حياته كل المغالطات والمفارقات .

إن له ميزانية بلا ميزان إن المرور في شوارع
يستقيم في إطار من القوضى التي بلغت حد النظام وإن
القانون يسود بلا قانون وإنك لتسال أهل وردستان
كيف استقام أمرهم مع كل هذه المتناقضات ؟ وإنك لتسمع
إجابة واحدة . . .

لأنها الحرية التي يفتقدها أكثر الجيران . . .

نفاقستان في ٢٣ أكتوبر

يدو أنك تحمد الكتابة كلما طال عرفتك عنها ، وقد راقني جدا
ما تضمنته رسالتك الأخيرة من الأفكار والمعاني ، وكأنني أقرأ
لموتسكيو أو أقضى لحظات مع فولتير . . .

وإن كنت تتواضع فتحكم على رسالتك — التي أبدى إعجابي بها —
بافتقارها إلى جديد في الرأي والتفكير ! ولست أدري أهذا من
تواضع المغرورين أو هو من غرور المتواضعين ؟ . . .

وتبعض رسالتك بالشكوى من الحال في شقاقستان ، الذي يبدو
أنه لا يريد أن يبدأ أو يستقر على حال ، وإن كنت أعتقد أن لكل
شيء نهاية ، فشقاقستان ليست وحدها في هذا الذي تصيبه على المسؤولين
فيها ، فقد عشنا تلك الفترة في نفاقستان ثم خفت موجاتها مع الزمان .

وأنت تشكو هذا الفيض من القوانين والقرارات والمراسيم
التي يلاحق بعضها بعضا ، وترى في ذلك بلبلة لأفكار المواطنين ،
وأنت في ذلك تبالغ ، جبتين ، فإن الكثرة الغالبة من المواطنين
— أي مواطنين — لن تمنعها هذه القرارات والقوانين . لأن هناك ناموساً
يطبع الناس على احترام القانون دون أن يقره أو يسمعوا به ، بيد
أن الثورات من طبعا ، سواء بيضاء أو حمراء ، أن تفرق رعاياها
بقوانين تفرض أفكارها ، وهي دائما تتغير وتبدل فيها ، وقلما يلتصق
هذا الفيض من القرارات والمراسيم والقوانين إلا حين يحمي من

أذهان الناس أنهم يعيشون في ثورة هوجاء .

ولامبر لشكراك ، فأنت تعلم أن كل نظام يعتمد على الفرد
ولا سلطان لأحد فيه غير هذا الفرد ، معنى جداً بالتقنين ليحمى نفسه حتى
من اللغات والهمسات .

إن هذه النظم لا يمكن أن تمضى في جو هادى . رتيب ، ومن طبعها
أن تشغل الناس في كل يوم بل في كل ساعة بجديد يشد انتباههم إلى
هذا الجديد .

وأنتك ترى ، كما هي الحال عندهم ، وكما كانت الحال عندنا ، أن من
سمات هذه النظم العمل على صرف الناس عن المعنويات والروحانيات
إلى أعمال مادية ضخمة تشغلهم وتكون مثار حديثهم بجمعين أو
منفردين .

ومن هذه السمات العناية بشق الطرق العظيمة ورصفها ، وتنظيم الميادين
الفسحة وغرس الأشجار فيها وتزيينها بالنافورات المصنّيات ، وإقامة
النصب والتماثيل ، ولورجعت إلى التاريخ منذ حكم الرومان ، إلى نابليون
إلى هتلر وموسوليني إلى نظامكم الدامى العتيد ، لوجدت أن النظام
الدكتاتورى يعنى أول ما يعنى بهذا كله ، إلى جانب فيض من التشريعات
والقوانين التى لا يهتم بها الشعب ، ولا يشغل بها إلا القضاة
والمحامون .

ونحن في منطقتنا السعيدة بالنظم الفريد من نظمها ، قد جددنا .

وابتسركنا وزدنا على من سبقونا، فاعتنينا عناية فائقة بالأغاني والآشيد
ولإنشاء المسارح والتزحلق على الجليد، وكل ما من شأنه أن يرفه عن
الشعب ويلبيه عن جد الأمور، وإنك لن تغير من طبع هذه النظم التي
عاش طبعها على هذا النحو الذي حكيته لك منذ مئات السنين وسوف
يبقى هذا طبعها مئات أخرى من السنين !

لا عليك يا صاحبي بما يدور عندكم في شقائقستان، وخذا الأمور كما أخذها
أستاذي، بواب عمارتنا الذي رُسمت خطاه سنوات الإرهاب التي عشناها
في نفاقستان.

وتسألني عن حالنا في نفاقستان :

إننا في دور النفاهة بما أصابنا في العهد الماضي القريب، وأنت تعلم
كم بكسة حدثت لنا في تلك الأيام، لذلك لا تعجب إن طال دور النفاهة
بما كنا فيه من عذاب، فكل يوم يسقط عتل ويسقط معه مركز قوة
من مراكز المسف والظلم والظغيان، وإن الناس لينخسبون أن تقوم
في العهد الجديد مراكز قوة فراقما أثر عن المراكز القديمة من سوءات...
ولست أفهم أن يقوم نظام حكم أو عمل كبير أو صغير وليست فيه
مراكز قوى، فمراكز القوى من طبائع الأشياء، والعبرة في أن نحسن
اختيار الرجال، وأن نلزمهم بسيادة القانون، ونحاسبهم حين يتكبدون
الطريق أو يرتكبون عملا إدا في مراكزهم... عندئذ تظلمن إلى صيانة
الأعراض والأموال والحريات،

إن « المير » الجديد يعالج مخلفات الماضي، ويحاول أن يطب للجراح
التي أفضت بها الناس من مراكز القوى القديمة، وإن أمامه طريقا طويلة

تستقر الطمأنينة في النفوس ، وهو يعلم أن شعبه رَوَّاح حال للأُمى والجهل ، وفي مقدور هذا الشعب أن يصبر ، وأن يسعد مادام يجد كل يوم تحولا ملحوظا نحو ما يتطلع إليه من الحرية وسيادة القانون .

أين كنا يارجل ؟

والله لو أن رسالة من هذه الرسائل التي أبعت لك بها وقعت في عهد الطغمة الباغية في يد خلبوس منهم لسنطوني ! وأذوا زوجي وبناتي ، وسجنوا أولادي وأصحابي ، وصادروا أموالهم ووضعوهم تحت الحراسة إن كانوا يملكون مالا أو عندهم ما يفرى بفرض الحراسات ! وأطلقوا كلابهم من كتابهم ليمزقوا شرفي وشرفهم وينهشوا عرضي وعرضهم ، وقد يتهموننا بالخيانة ولن يعوزهم تزوير الدليل ، ولن يعدموا قاضيا من تقليمهم السرى يقضى بالحكم الذي يريدون !

وكيف أصبحنا يارجل ؟

إن سيادة القانون ، وإن النقد مباح ، وإن لا كتب لك رسائل ولا تهتز شعرة في جسمي من الخوف أو الرعب أو القلق على المصير ... إنما أسجل لك أياما عشتها قد يرجع إليها التاريخ ، وسوف يرى التاريخ أن فيها بعض الصحيح وليس كل الصحيح لأن الصحيح الصحيح يحتاج إلى مضي أجيال ليعرض سليبا مبرءا من الهوى ، فتحن بشر ، ونحن حين نكتب أياما عشناها ، فسوف لا يكون مانسكتبه فوق النقد والتجريح .

لم يبق للناس من خشية إلا خشيتهم من نظام المعلومات ، فإن الوزير عشيران كان يسيطر على هذا النظام قراءة تسعة عشر عاما منذ كان حدا

لم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وقد استغل قربه من «المير» الساحر الخطير وجعل من المعلومات التي كان يقوم بجمعها له دعاء السوء سيفاً يصلته على الناس ، وكان يصنعى بالمودة لكل فاسق جاء نبأ ، ولم يفكر يوماً في أن يقبض وجه الحق في المسألة ، وكان — كطبيع فيه — يميل إلى الشر ، وما أكثر شره الذي لحق بالمواطنين ، فقد زعم السجون بالاحرار ، وفصل الموظفين بالملثات ، وأجاع الفقراء ، وأفقر الاغنياء ، ونسى أن هناك إلهاً يرقب ويرصد ويعد موازين الحساب .

وأنا لا أضيق بجهاز المعلومات إن وليه رجل كفاية وخاق ودين ، جنكه الايام ، وعصرته الاحداث وزكنه العلوم والتجارب ، فإن السلطان في يد الجبهلاء من الصفار يزعم حياة الوطن بالصفار . . .

نفاقستان في ٢٠ أكتوبر

ما لهذه الدنيا قد اسودت في عينيك ؟ ولم كل هذا الأسى يضر
قلبك ونفسك ؟

لشدهما آلمني أن أراك في رسالتك الأخيرة صريع هذا التشاؤم الذي
لا يليق بأهل العلم ، فأنت بكفايتك تستطيع أن تشرق أو تغرب فتجد
الرزق الحلال والمسكان المرموق ، ولا عليك فيما يعاملك به الرعيون من
قومك ، فقد قيل في محنة مشهورة : ليس لني في وطنه كرامه ...

وأن مثل النظام الذي تعيش فيه ، لا يمكن أن يأذن لحر أن ينال حقه
إلا إذا باع له حريته ، أو يسمح لكفـ بالفوق والامتياز إلا إذا
جعل من خده موطئاً لنعاله ، وأنت بتاريخك وعلمك ومؤلفاتك قادر
على أن تشق طريقك في أي مكان يحترم العقل والعلم . ويدرك مقام أهل
الرأي وأصحاب البصيرة من العلماء والمفكرين .

يا صاحبي ، ليس وطناً هذا الذي يعيش فيه المواطن غريباً معرضاً
للقتل والسجن والتشريد لأتفه الأسباب . . وكل حظيرة بعده جنه من
الجنان !..

أرجو ألا تستعجل قضاء الله فيمن أساء إليك ، فإن عدل الله آت
لا ريب فيه . وانتقامه موقوف بميعاد . واحذر أن يبين منك العظيم
أو تخور بك المزائم ، فما من سلطان ظالم في الأرض إلا وله جبار
عادل في السماء .

وأقص عليك أبلغ القصص لنشيج بالسواد عن عينيك ، وتطرد
الحزن من قلبك ، وتصرف الأسى عن نفسك .

كانت قصة الإقطاع في نفاستان أشبه بقميص عثمان ١ .
قالوا أول عهدنا بهم ، لأنهم جاءوا فائزين على الإقطاع ، فأما بقولهم
وإن كان لفظ الإقطاع ، لا يعنى ما أرادوه ، فما كان عندنا ليس إقطاعاً
بل كان ظلماً في توزيع الأرض ، وظلماً في حيازتها ، وظلماً في استغلالها
فقضى بفضلهم على هذه الألوان من الظلم جميعاً ، أما الإقطاع بمنهوما
العلمي فتى آخر تعرفه العصور الوسطى وتشرحه الكتب في آلاف
الصفحات .

وصودرت الأطيان ووزعت على الفلاحين ، وسر خاطرنا لعدالة
الشوار الثائرين ، وإن كان التطبيق قد شابه بعض المظالم ولم يخل من
عبث العاشرين .

وبعد أربعة عشر عاماً من قيام ثورة الأحرار قال مشيرهم إن
الإقطاع باق في بعض مدن الريف ، وهو ليس إقطاع أرض . بل هو
إقطاع في نفوس بعض المواطنين الذين لا يزالون يؤمنون بأدميتهم ،
ويعتزون بكرامتهم ، ويشغلون مكانة في نفوس الناس ، ولا بد من تعطيم
بقية المخلّوء القوم من عزة نفس وشمخة أنف ، فليس لغيرنا — نحن
الحكام — حق في رأس مرفوع أو قول مسموع ١

وكلف زبانية أولئك الطواغيت بتنفيذ ما اعتزموا من ظلم جديد ،

فألقوا البيوت بليل ، واعتدوا على الحرائر وهن في لباس النوم ،
ونافسوا قطاع الطرق فاستولوا على مافي البيوت من مال ومصاغ ،
وطردوا أصحابها إلى الطريق العام ومن بينهم مرضى ينازعون الموت
وقيل إن الزبانية ارتكبوا بعد ذلك آثاما ضجت لها السماء ، فاستعجلت
القضاء ، فنزل بنا الهزيمة النكراء .

وكانت كارثة الهزيمة د أم الكوارث ، فشدهت الظالمين والمظلومين
على السواء ، وتريت الطفيان ليأخذ أنفاسه ، بيد أن الجبار كتم أنفاسه .
فدب الخلاف بين الروس من الطغاة ، فأت بعضهم فجأة في مناخ لا تزال
في أمره حائرين ! وحوكم بعضهم وسجن لما قيل عن خيانات ارتكبوها
في ساحة الحرب وأدت إلى العار الذي كنا فيه ، ووقعت البعض
حوادث في الطريق العام أرملت نساءهم ويثمت أولادهم ، وقيل .
وقصد بعضهم بصره بلفظة من المنتقم الجبار في علاه .

يا صديقي : إن ربك لبالمرصاد لمن آذى الوطن في سمعته أو أقرف
الآثام في حق أبناء الشعب المسالمين .

سبحانك ربى ، تمهل ولا تمهل ؛ تمد للباغى حتى ليخيل إليه أنها
دامت له وحده ولن تصل إلى أحد من بعده ؛ ثم تهوى به إلى مقام
الحشرة فى دنياه ، وتعد له من عقابك فى آخرته ما هو قين بما ارتكب
من جرائم وشور .

وكى يطمئن قلبك يا صديقي لحسن الخواتيم ؛ عرضت لك ما عايناه .

في نقاقستان . وقد عشنا موجة الظلم العاتية حتى انحصرت بإذن الله . وكى
أكون متصفاً في وصف الحال . فإن هذه الموجة لم تحبىر فحسب بل جبتها
مناخ جديد . نقلنا من أحراش الحيوان إلى عالم الإنسان . من عالم
يسوده الرعب إلى عالم يوحى بالطمأنينة . من عالم كان القوى يمتنع
فيه الضعيف إلى عالم يسوده القانون فيطاول فيه الضعيف القوى بلاخوف
أرعب ، عالم ينال فيه القزم حقه من عملاق ...

إنك تشعر بالعرف بما يدور في نقاقستان ، وتقول إن الهزل يسود
ذرائرها بالتهريج وإطلاق الشعارات وبتنظيم الحملات على كل قديم ،
سواء كان القديم ناساً من خيرة الناس ، أو عملاً تشرف به الأجيال
لها انطوى عليه من صالح الأعمال .

إنك لو عشت أيامنا الأولى من الثورة في نقاقستان لذهب عقلك
من كثرة ما عانينا من النفاق والتهريج والتضليل واللعب بالشعارات ،
فقد أرادوا أن يصوروا للأجيال الصاعدة أن أمة ولدت ولم يكن لها
من قبل تاريخ ... كل ما سبق الثورة جهالة وظلم واستغلال مع أن
من أذاع بيان الثورة هو نفسه دليل على أن نقاقستان كانت تنبض
بالحيوية والثورة قبل أن يعرف واحد من هؤلاء الثوار .

نعم لقد أرادوا أن يزوروا التاريخ ، يزوروه حتى على الملايين
من الأحياء الذين عاشوا هذا التاريخ ، فكتبوا وخطبوا زاعمين أن
نقاقستان بالثورة قد ولدت ولم يكن لها من قبل تاريخ ١١٩ ...

أرادوا أن يصوروا النخبة القديعة للأجيال الصاعدة عبيداً جهلاء تنقصهم الشجاعة وينقصهم الفهم والإدراك ، وهم يعلمون علم اليقين أن نقاقستان كانت تزدهم بالاحرار والمفكرين وأصحاب الرؤى الثاقبة حتى أنه بعد عشرين عاماً حققت الثورة ما تطلع إليه أحرار العهد القديم من أمان وأحلام ، ألم يقف نائب من نواب الأمة يدعو إلى قصر الملكية الوراكية على خمسين فدانا؟ ألم يقرر حزب الأغلبية أن يكون التعليم حقاً لكل مواطن كالقواء والماء؟ ألم تهاجم الصحف الحرة فساد الجيش وفساد أسلحته حتى زج بأصحاب هذه الصحف في السجون والمعتقلات ، وحتى رتبوا لواحد من أعلام الصحافة وله في تاريخها مقام مقدور ، رتبوا له عصابة ، لنقله في الطريق العام ، فقد آذنتهم حملته على الأسلحة الفاسدة ، وخشوا أن تثير هذه الحملة جنود الجيش وضباطه ، وهو ما حدث آخر الأمر وترقب عليه قيام الثورة وتغيير النظام .

إن كثيراً مما فعلته الثورة كانت تضرب به نفوس أهل نقاقستان قبل أن يثور ثائر وفي يده سلاح ...
ثم ماذا ؟

إن أعلام المفكرين قبل الثورة من أدباء وعلماء ومهندسين وصحفيين لا يزالون حيث هم في جبهة الحياة وصدر المسيرة ، وقد حاول المناقون والمزلفون من هذه الفئات أن يقصوهم عن مواقعهم ومقامهم ، ففشلت المحاولة لأن النفاق لا يمكن أن يخلق من الخير أياعر ...

ثم ماذا؟ حتى المغنى والطرب ، والدق على الطبله والنفخ فى المزملة
لا تزال مقدراته فى الجليل القديم ، يقود ويعلم ، ويخلق ويتكر
وعلى مشاعله تجبو البواكير كي تشغل عند اللزوم المكان ...

إن الثورة المنتجة الذكية هى التى تأخذ من مفاخر الماضى وأبجاده
دعامة ترتكز عليها فيما اعتزمت من أمور .

إن هتلر ، وهو النازى المجنون ، كان عاقلاً حين ألقى مهام السياسة
الخارجية إلى رينتروب الدبلوماسى العتيق وأحد أساطين السياسة فى العهد
القديم ، وألقى أمور الاقتصاد والتصنيع إلى كروب وغيره من عتاوله
الصناعة والاقتصاد فى ألمانيا من عشرات السنين ، ولو قدر لهذا المجنون
العاقل أن يترك شؤون الضرب والنزال لأهل الضرب والنزال ، ولم
يفرض أسلوبه الفظير على ميدان الوغى ، لكان حال بلاده غير حافلة
الذى انتهى بها إلى الفرقة والتقسيم ...

إن الثورة العادلة العاقلة . هى التى تأخذ العبرة من الماضى ولا تنمط
حق هذا الماضى . وهو لاشك يزغر بالحسنات وإن لم يخل من سيئات
ولاشك أن سيئاته أذهبن حسناته . لذلك كان لابد من ثورة . وجاءت
الثورة على الماضى القريب وتولت البطانة بجهالة وعبط ، تجريد هذا
الماضى من كل المحاسن والمكرمات ، حتى جاءت لفظة التصويب ،
ومنذ ذلك التاريخ بدأ يصح الصحيح .

نفاقتان في ٢٨ أكتوبر

حدثنا العهود والمواثيق المكتوبة أن نفاقتان بعد الهزيمة الكراء
لن تعيش إلا كما تعيش الأمم الحرة ، وأن العدالة ستكون رائد
المسؤولين في كل ما يمس حياة الشعب ، وأن مواطناً لن يتعرض لأذى
يغير حق .

ولست أدرى ماذا يقول التاريخ في وزر الأوزار الذي ارتكبه
في حق العدالة التي زعموا أنهم حاشا بنص من المواثيق والعهود ؟
لقد طغى السكيل في الظلم والطغيان ، وفساد الذمة وسوء التدبير ،
حين تعرضت العدالة لسف السلطان وغروره .

لقد أصيبت هذه العدالة بفواجع ومأس لم تشهد لها الدنيا مثيلاً
منذ قنن حاموران حتى غرقنا في قبض من تشريعات الأحرار
للسائر ؟ ...

كيف كانت محنة العدالة في نفاقتان ؟

في يوم عابس حزين كان يجب أن تلطم فيه الوجوه وتشق الثياب ،
عرو ل شعوريان وزير الأمن والنظام إلى المير ، الساحر الخطير ينبت
بفراو صدر من قاض بالإفراج عن جماعة من الناس اتهمها الوزير
بزعائما الطبقية وتعذيبها للمواطنين ...

فقال المير : وما ضرنا أن تبين براءة قوم اتهموا خطأ أوزورا
بعمل لم يرتكبه ؟

فقال شعوريان : ولكن الاتهام صدر منا ، ونحن حماة الأمن والنظام ، وكى يستقر الأمن والنظام يجب أن ينحى هذا القاضي عن منصبه ليكون عبرة لغيره من القضاة . . .

قال « المير » ، إنى لا أحب أن تضع الدولة أنفها فى أحكام القضاء ..
إنى أرى القضاء « كولى » القرية من ميه بسوء نزل به كثير من البلاء ؟

فاستأذن شعوريان قائلاً : ولكنك ياسيد الناس تعلم أن إجازة حكم هذا القاضي ستهد النظام من قوائمه ، وتشجع الناس على احتقار الحكومة والاستخفاف بالسلطان ! ...

وتدخل وزير القصر سمشريان يعرض حلاً ترضاه ذمته الواسعة ويباركه ضميره النعسان ! ! ...

ثم قال : عتدى من الرأى ما يحل القضية على النحو الذى اعتدناه ..
فترك القاضي يفرج عن هؤلاء الناس ، ثم يقوم نحن باعتقالهم ، وبذلك يصبح حكم القاضي لغوا ، ويشعر الناس أن الكلمة الأخيرة للسلطان ! ؟ . . .

ولكن شعوريان اعترض على هذا الأسلوب ، لا لأنه ينكره أو لأنه أبطل العمل به ، بل اعترض عليه لأن من صدر حكم الإفراج عنهم من ذوات القوم ولهم فى نفوس مواطنيهم مقام مقدور ، وينحى أن يثير ذلك نائرة البلدة وما حولها من بلاد . .

ولكن « المير » الساحر الخطير اعترض مرة أخرى على تدخل

السلطة في أحكام القضاء ، مذكراً وزيريه بأن ما أصابه الوطن من
هزيمة نكراء كان عقاباً لما ارتكبه أمثال الوزيرين من أخطاء ، وأنه
لا يود معركة مع العدالة في الوقت الذي أرقّت الحرية حياة الناس في
كل ميدان .

وحسني شعوريان رأسه وظهره ، وبدأ كأنه يسلم بما يراه « مير »
البلاد ، وقال في صوت خفيض : يا سيد الناس ، إنما أنا — إذا أذنت
لي — ناصح صغير ، من واجبي أن أنفض لكم ما بنفسى ، وإن نفسى
لتحدثني بأن القضاء يأتمرون بليل ، وأن وزير العدل ، وهو من اختياركم
وعمل تمتكم ، قد حاول أن يسلكهم في الصفوف ، ويسوقهم مع
القطيع ، فاحتقروه وأهانوه ، وتمردوا علينا وجبروا بالصيان ،
وتحدوا الثورة فاختاروا لناديتهم جماعة تمثلهم ولا تؤمن بما تؤمن به ،
بل تنقد علانية طرائق النظر في حكم البلاد ، وتدعو إلى الحرية وما
تعنيه الحرية من فساد !

واستطرد شعوريان : إن هذا الذي أحكيه لسيد الناس نزعات
شريرة من شأنها أن تميز الأمن والنظام ، وسوف يكون تمردهم مشجعاً
لغيرهم من الجماعات ، وأنت يا سيد الناس لا تريد أن يرتفع صوت
على صوت المعركة ، فأخدم بالحزم — مهما تكن محنة البلاد —
ضرورة من الضرورات . .

ثم انحنى الوسواس الخناس وصغر خديه قائلاً . . .
والامر آخر الامر لسيد الناس :

وراح « المير » الساحر الخطير في تفكير عميق ...

ثم صدر قرار بإعادة « تنظيم القضاء » أو « تطهير القضاء » أو قل تجربة جديدة للظلم والعدوان ، وفي هذه المرة كان الظلم والعدوان على قدس الأقداس .

واقتضى « تنظيم القضاء » فصل جميع القضاة والمستشارين ثم إعادتهم إلى وظائفهم بعد يومين من الزمان ، تعطلت فيهما المحاكم ، وعاشت نفاقستان اليومين بلا قانون !

واستبعد « تنظيم القضاء » نخبة من خيرة القضاة والمستشارين على رأسهم قاضي القضاة ، وهم جميعاً من الصفوة التي تفاخر بها البلاد ...

وكانت هذه المذبحة وصمة عار ، عار لم يمرؤ عليه سطوة المستعمر الذي جثم على قلب نفاقستان زهاء ثمانين عاماً يعيث بمقدراتها كما يشاء إلا القضاء ، فقد تخرج أن يطوف بساحته أو يعترض على حكم صدر ، أو يركم بريعه ، تلك الأنوف الشماء ، ولسكن البطانة الفاسدة الجاهلة المؤذية استطاعت أن تقتحم هذا الحصن المنيع الذي استعصى على السلاطين والملوك وقوات الاحتلال ...

ويمضي عام واحد وتظهر كرامة « ولي » القرية فيجيء « مير » جديد ، ويرث « المير » الجديد التركة المثقلة بالظلم والفساد . فيرد القضاء والمستشارين إلى مناصبهم الرفيعة ، ذلك لأنه يعرف قدر القضاء ويعرف مقامه العظيم في حياة الأمم والشعوب ، ويعرف أن شعباً يعيث بقضائه شعب غير جدير بالحياة .

نفاخستان في ١٥ نوفمبر

لقد فاضت عيناى بالدموع ، وإنما للدموع فريدة ، فلا هي دموع
حزن على فقيد عزيز ، ولا هي دموع فرح لحبيب أثير !

إنها دموع الرهبة والخشوع ، والسعادة بالإيمان الذى يملأ القلب
والنفس والعقل جميعا ...

لقد رفعت رأسى من سجنتها وأنا وسط الآلاف أودى منهم فريضة
الصلاة ، فإذا الناس يرفعون رؤوسهم مثل ، ورأيتهم إلى جوارى ، وفي
مواجهتى ، ومن خلقت ، وهى المرة الأولى التى أرى الناس يصلون فى دائرة ،
ويواجه بعضهم بعضا ، فمرفت أننى فى بيت الله الحرام ، وأن الكعبة التى
يتوجه إليها الناس خاشعين ، حاضرة تملأ العين بجلالها ، والحمام يطوف
بها ولا يعبرها ، كأنه يصل معنا ، وكأنه تطهر مثلنا ، فلا تسقط منه حاجة ،
أو يفلت من فمه شيء ، ولا يصدر عنه صوت فيشوش على الإمام وهو
يؤمنا ويتلون كتاب الله بعضه ، وهو يقف متصباً مكبراً والله أكبر ، ثم ينحني
يسبح ربنا العظيم .. ثم يسجد ذا كراً الله جلّت قدوته فى علاه ، ثم
يعلن أنه سبحانه وتعالى قد سمع لنا بعد أن حمدناه ...

ولأذن ، فأنا فى بيت الله الحرام ، حيث شرفت الأرض بمخطفى إبراهيم
ومحمد عليهما السلام ، وهنا ركضت سارة بين الصفا والمروة حتى تفجرت
زمرم ، وهنا بدأ الإسلام ، ومن هنا انتشر ، وهنا آمن الناس بالواحد
الأحد ، وهنا أكل الله على الناس دينهم ثم دخلوا فيه أفواجا ، ورفعوا

عليه أجيالاً بعد أجيال ، ومن هذا الوادى القحط الفقير ، برغت أنوار الحق وقضت على دول الكفرة والملحدين ، وأغذت السير شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، حتى كان اسم الله يذكر على مآذن المسلمين من المحيطات الشاسعات إلى بحار الهند والصين .

وطوفنا بالكعبة سبماً ، وهرونا بين الصفا والمروة سبماً ، ودعونا الله أن يغفر لنا ذنوبنا وإنه لغفور رحيم .

وما من بقعة في هذه البلاد الشاسعة إلا وآثرها الله سبحانه وتعالى بمكرمة ، فأنت إذا انتقلت من أم القرى إلى المدينة فموقف ترى النور يحيط بقلبك وعقلك ونفسك ، حيث المقام الطاهر لنبى المسلمين عليه الصلاة والسلام ، وحيث تعزى المدينة المنورة بجهاد سيد المرسلين للكفرة والملحدين وحيث امتحنه الله فى النصر والهزيمة ، ففكر ربه حين انتصر ، واستعان به حين هزم ، فإذا هو بالمة القليلة يسحق أعداء الله على كثرتهم ، ومن هنا خرج العدل والشرف والرجولية والكرم والحرية والإخاء والمساواة وغير ذلك من معالى الأخلاق ومبادئ البر والخير والمعروف .

واستقام حال المسلمين أجيالاً تمسكهم بأسوة محمد العظيم ، فلما مالوا عنها مال عليهم الزمن بالهزائم والتأخر والمار ، وتفرقوا فلا عاصم لهم من وحدة ، ولا رباط بينهم من دين ، فقد خف دينهم حتى أصبح كالفلالة على قلوبهم ، وغشيت أبصارهم عن رضى الماضى المجيد ، وأصبغوا كما ترى ، خلوا من العلم الذى سوده الله وأعلاه ، ينقصهم الإيمان

الذى يشدهم إلى السماء فيرقع هاماتهم في دنياهم وفي آخرتهم على
السواء .

كم أنا حزين لبعذك عن هذه الروحانيات التي تملأ الصدور بالنور
وتكشف مسالك الطريق ، فأنت مشغول بالتزال في أكثر من ميدان ،
تكافح النهازين المنافقين ، من أهل العلم في شقائقستان ، وبالضيعة العلم حين
تتزعج خصومة العلماء عن الحسة والدعاة ، وتظل صراعاتهم من فتائل
العلماء ، وتنازل نظاماً جباراً حرمك التحرك إلى يمين أو يسار ،
ووقف دون هجرتك لتسعى في أرض الله التي وسعت الملايين ، وضائق
في وجه واحد من الأحرار .

وبرغمون في شقائقستان ألهم مسليون ؟ ولعمري فإنه لإسلام يبيع
المعاصي ، ويزور المحاسن ، ويسمح بشق الخصوم وذبحهم وسحلهم بلا
تحقيق أو استجواب .

لك الله يا صاحبي .. فما نعرف اليوم شيئاً من هذا في نفاقستان وحتى
في الأيام السود ، أيام سمثريان وشعوريان ، كانت الجرائم ترتكب
في خفر وعلى استحياء ، وكانت موجاتها تنحصر ويطول انحسارها ،
وكان المير ، الساحر يأذن لأكثر الخصوم بأن يسعوا إلى رزقهم في
نفاقستان أو في غيرها من بلاد الله في كل مكان .

والله إنني لفي عجب ! .. إن كل ثورة قامت في الدنيا ، قامت باسم العدالة
والحرية ، وما من ثورة إلا وافقدت فيها العدالة والحرية ! فامض معي
منذ ثار كرومويل إلى الثورة الفرنسية إلى ثورتكم القرية ، تر صورة .

تكرر ، ينقلونها من إطار إلى إطار ، ولا يغير من معناها سواد الليل أو وجه النهار .

وما أحب أن يفزعك هذا الذي أنتم فيه ، فكل شيء كما زعمت لك من قبل له نهاية قصر الزمان أو طلال ، فإن بعض الثورات - كشورتكم - تبدأ أحراء ، وهي أشبه بالثور ، يشبه اللون الأحمر فيزداد شدة وحدة ، كلما لوحظ لها بالدم غرقت فيه إلى أذنيها ، وهكذا تمضي الأمور حتى يصرع الثور أو يصرع مثيره ، فتبدأ الثورة وينتهي النضال ويسود السلام .

إن من نعم الله أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش عمره كله ثائراً ، فلا بد أن يبدأ ، وكل ثورة هي من صنع إنسان ، ولا بد أن تأخذ الثورة أي ثورة - من طبع هذا الإنسان ، فتأمل وتنام ، وبذلك يعود السيف إلى غمده ، وتصبح الثورات ذكرى ، وتقيم بما خلفت من حسنات وشروء .

لك الله يا صاحبي . . إن ثورتكم لفريدة بين الثورات ، قد استعز لهيبها فأثمر ينامي وأيامي ، وحطم ودمر ، ولم تستطع أن تطفئه بعداً مطار الشتاء .
ولأنه لعجب أن يعيش الناس وقد خلت قلوبهم من الحب والرحمة ، ولكن كيف يحب الناس ويرحون وقلوبهم تزرع في هذه الأيام . . ١٩ .

نفاقستان في ٣٠ نوفمبر

لست في خلاف معك أيها الصديق ، فأنا أرى رأيك في أن العبرة ليست في صيغة المرائيق الضخمة والقرارات الكثيرة التي تصدر عن الحكام والمسؤولين كمهد منهم مكتوب يلتزمون به قبلاً شعوبهم وأوطانهم ، وإنما العبرة في تطبيق ما تضمنته هذه القرارات والمواثيق تطبيقاً سليماً لا بحفاة فيه للعدل والحق ، ولا غرض في تفسير بنودها على النحو الذي يبعث بروح العبودية ويحجبها قصاصات لا تستحق ما بذل في كتابتها أو طباعتها أو زفة الإعلان عنها في الصحف والمجلات أو في الرميات والإذاعات .

وقد صدر في نفاقستان شيء من هذا ، أرادوه "ماجنا كارتا" ، ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وهذا الشيء الذي صدر هنا تضمن فصلاً في الحرية والعدالة والمساواة ينزل حيالها "ماجنا كارتا" ، الإنجليز ، وهو الاتفاق المشهور في إنجلترا بين ملكهم ونبلائهم الثائرين على أوضاع من الظلم تؤذيهم وتؤذي معهم الجماهير .

والعبرة يا صديقي في التطبيق .

تقدّم الإنجليز ميثاقهم ذاك ، وأضافوا إليه تقاليد في نظم الحكم الحرة عبر عدة قرون لم يصكوها في ميثاق أو يسجلوها في قرطاس ، وإنما أصبحت ممارسة الحرية عندهم تقاليد معروفة ، ومن ثم يُحكم الإنجليز اليوم في أضواء حرية لا يعرفها شعب من الشعوب ، في إطار دستور غير مكتوب .

وعندنا مصدر ميثاق وقرارات، تضمنت بنودها من المعاني
ما يزرى بما عند الإنجليز من عدالة وحریات، ولكن بطانة السوء
ومراكز القوى الشريرة في عهد المير، الساحر جعلت الميثاق
والقرارات حبراً على ورق، بل جعلتها ماثراً للسخرية لا عند المواطنين
فقط بل عند كثير من الجيران !

فقد قررت الموائيق والقرارات أن تنفخ من أنوفنا في حرية
كما برأنا الله، غير أن الحواريين من مراكز القوى وبطانة السوء،
فرضوا على خصومهم أن يتنفسوا من أفواههم لقرص صدورهم
وتضعف قلوبهم وتجف حلقهم وتمجز السنتهم عن الكلام ! ...

العبدة يا صاحبي بالتطبيق ...

وقد جاء المير والجديد فأقسم اليمين الدستورية في أعطاف ما تضمنته
الميثاق والقرارات، فوجئنا، وخشينا أن يكون ذكر الموائيق كما كان
ذكرها في الماضي، حديث مجالس، أو دفة مجالس كما يقول العامة
أصحاب العبر والعظات ؟ ولم يطل بنا الوقت لنعرف ما كان في قسمه
من صدق، فقد بدأ تنفيذ القرارات والميثاق، بما تم من سيادة للقانون
 وإفراج عن المعتقلين السياسيين، ومعالجة مظالم البطانة ومراكز القوى،
 وغير ذلك من تطبيق لما انطوت عليه نصوص الميثاق والقرارات .

هكذا طبقت الموائيق في عهد مضي، وهكذا تطبق في العهد
الجديد، ويرجى أن يضيف الحوار بين المواطنين جديداً من شأنه

أن يجعل تنفسنا صالحاً لاكتساب مزيد من يود البحر وأوكسجين
الهواء...

* * *

لقد ضحكنا كثيراً لما احتوت عليه رسالتك من حكايات عن نفاق
الصحافة عندكم وليركم ، ومساعدته ، وأنت تبرم بهذا النفاق مع أنه
في مثل هذه النظم الجدير بأن تأخذه من باب الترفيه عن أنفسنا كمرطب
لنفسوة الحياة التي نعيشها ، ونعتبره مسلحاً تروى على سبيل المازحة
والفكاهة والتكيت ...

وما أظن صحافتكم في شقاقتان تستطيع أن تنافس صحافتنا في براعة
النفاق ، وهي عندنا لها تاريخ قديم ، وفن النفاق لا تجيده صحافة في
العالم مثلاً تجيده صحافتنا في نفاقستان ...

في عهد الملك ، أقيم معرض البقر ، فنشرت صحيفة المساء الأولى
إذ ذاك عرضاً مفصلاً عن هذا المعرض ، وتحدثت عن السلالات
المنظمة التي ظهرت فيه ، ثم ختمت قائلة إن التطور في تحسن هذه
السلالات يرجع الفضل فيه إلى جلالة الملك ...

حقاً إن العدو العاقل خير من الصديق الجاهل ...

ولم تبرأ صحيفة عندنا من نفاق الثورة وخاصة في أيامها الأولى ،
وأذكر أنهم أعدوا مشروعاً لتحضير جزء من الصحراء ، وعلم الناس
بهذا المشروع في حلة صحفية وإذاعية ضخمة ، ونشرت الصحيفة

الصباحية الأولى صوراً لأول «مير» في البلاد وهو يجلس القرفصاء ويبذر بذور البطيخ والعنب، وبعد خمسة أسابيع نشرت صوراً لأنواع من بطيخ الصحراء لم تعرف نفاستان من قبل بطيخاً في كبر حجمه ، وألواناً من عناقيد العنب تشرح القلب والعين جميعاً ... ودعنا من الأسابيع الخمسة التي أنضجت بقدرة قادر هذه الثمار النادرة ليدخل بها التفاق على العامة مُدْخَل كُتُب ، فإن تساؤل الواعين كان يدور حول المسكان الذي استوردوا منه المصور من العنب والبطيخ ١٩...

ولم يقف التفاق عند هذا الحد ، بل مضت نفس الصحيفة بعد أيام من نفاقها حتى بلغت ذروته في «ويورتاج» ظهر فيه «المير» وزملاؤه بين دجاج الصحراء وفاكهتها ، وقال السكاتب «يرى الدجاج يطير فرحاً بزيارة «المير» وصحبه ١٩...

وفي الاحتفال بعيد الثورة الأول جلس الناس في سرادق ضخم نصب في أوسع ميادين العاصمة ، وهم نحو ثلاثين ألف مواطن في أكثر تقدير ، وقدرت صحف نفاستان الثلاث عدد الحاضرين ، فوعت الصحيفة الأولى أنهم نصف مليون مواطن ! ثم قالت الصحيفة الثانية إنهم أكثر من مليون ! وقالت الثالثة إنهم مليون ونصف مليون ! ولو كان في نفاستان إذ ذاك عشر صحف لبلغ عدد الحاضرين خمسة ملايين ٩...

ليست صحافتنا وخبها المبرزة في ميادين التفاق ، وإنك لتجد ألواناً

من النفاق الصحفي عند كثير من الأمم والشعوب ، وقد كانت صحافة فرنسا علماً على النفاق حين سقط نابليون ، فقد وصفته الصحف التي كانت تسبح بحمده ، بأقذر النعوت والأوصاف ، ووصفته بأرذل الطباع وأسطر الأخلاق ، فلما فر من منفاه قالت إن الوحش هرب من منقلبه ، وحين نزل ساحل فرنسا قالت إن الكلب يدنس أرضنا من جديد إن قوات الجيش في طريقها للقبض عليه ، فلما انضمت قوات الحكومة إليه وسميت أنه في طريقه إلى العاصمة قالت إن جلالة الإمبراطور في الطريق ... فلما دخل باريس ، قالت إن الدنيا أشرقت بعودة الإمبراطور إلى عرشه العظيم ...

وفي نقاستان لم يقتصر النفاق على الصحافة والصحفيين بل استمتع بمناخ طيب لدى العلماء والمفكرين ...

وأذكر أن عالماً في الآثار، وأستاذاً في الهندسة ، وأديباً مشهوراً ، قابل كل منهم الملك عند توليه العرش وهو دون العشرين من عمره ، فخرج الأول يتحدث عما استفاده من الملك من جديد في الآثار وأخرج الثاني يزعم أن الملك حدثه في شؤون الري كما لم يسمع حديثاً مثله في عمق الفهم وأصالة التفكير ، وذكر الأديب المشهور إعجابه بإطلاع الملك الواسع في آداب الأمم والشعوب ، وأن حديث الملك ولقنات ذمته الراجعة في شؤون الحياة هزته وأسعدته ، وأنه ليدعوا الله أن يحفظ جلالة ويمرسه ويحميه !!

بمثل هذا النفاق يُفسد الملوك والحكام ، وبمثل هذا ينحرف المسؤولون عن جادة الطريق ، وبمثل هذا تنحط القيم والأخلاق ، ومهما تكتب أنت أو أكتب أنا ، فلا أمل في إصلاح النفوس مادامت حرية النقد غير مكفولة ، ومادامت العدالة قد عميوا عينيها فلا تبصر الغث من الثمين ، ولا مفر من أن يكون للنفاق والمنافقين القيدح المعلن في مقدرات حياتنا ولو أفسد ذلك حياتنا ، وكأنك تُؤذّن — كما يقولون — في مالطه وإليك لتصل وحده ، فليس في مالطه واحد تومه أو يؤمك في صلاة ...

نفاقستان في ٥ ديسمبر

أكتب لك بدموعي ، فالיום استرد الله وديعته ...

اليوم فقدت ولدي - أكبر أولادي - شهيداً وهو يؤدي أشرف
حسن ، وهو يُعلم زملاءه ويدربهم على الطيران ...

إنه ولدي وحيبي ورفيق عمري ، ومن نافست أخوته لي ، أبوتي له ،
ومن كنت أرجوه لشيخوخة مقبلة ، وأخت له في مطالع العمر ،
ومن كنت أحبه لنفسه وخلقه وأدبه ووداعته ...

إنه معي ، أصبحت أو أميت ، وإن فجعني فيه ليمجز عن
تصويرها قلم أو تحكيها صفحات ...

« ربنا أفرغ علينا صبراً »

صدق الله العظيم

نفاقستان في اول يوليو

سبعة أشهر لم أكتب لك فيها ، فقد كنت — ولا أزال — أسير
حزني على الحبيب الذي ولي وراح ، وخلف في القلب حصرة ما أظنها
تخف مع الأيام ، وإنى لأبكيه كلما مر بخاطري ، وهو دائماً في
خاطري ... ويميمون على البكاء ، فهو غنم شمر لا يتفق وأصالة
مسلم ولا يليق برجل قوى الإيمان ... ومنذ متى يا أخى حرم الإيمان
بكاء الأب على ولده الشهيد ، وقد بكى من قبل خاتم المرسلين على إبراهيم
وذهب بصري يعقوب على ولده الفقيد ؟

إن صاحبتى هنا تعالج أمرى ، وما رأيت في حياتي زوجاً مثلاً
تأسو الجرح ولو على حساب شبابها وعافيتها ، وهى ، منذ أراد الله أن
يحسن ختامى بها ، إلى جوارى قلبى في مرضى ، وقاسمنى الحزن في
نكبتى . وترطب من عذاب قلبي ، ونصون عرضى واسمى ، فلما أقد
بكل ما عنده سبحانه من جزاء عظيم في دنياها وآخرتها .

معذرة إن شابت رسالتى آفات حزن وأنت لا تفصلك الاحزان ،
وإن حزنى لحياتنا العامة زاد من همى وغمى ، وإنى أراها دائماً ، هذه
الدنيا ، قبض النفس ، فإن الحال لم يعد يمد له عدو أو حبيب ، وإنى
لمستغنى على هذا المير ، الذى يسوس أمورنا ، فقد نصبت أكرية الشعب
حين توسمت فيه الخير ، فأخذ يواجه من أول ساعة مراكرز القوى الهـ

سيطرت على مقدراتنا في عهد المير . الساحر الخطير فأخذ يلاطنها ويداورها حتى يرد على الناس كرامتهم ويغفلوا عن الأحرار المعتقالات والسجون ، وبذلك يسود القانون وترفع المظالم وتستقر النفوس في الصدور .

وإني لمشفق على الرجل . . . فقد ورث تركة أفسدت فيها الأخلاق لإفساداً ، فلم يعد قدر لسكبير عند صغير ، ولا وزن لعالم عند جاهل ، ولا مقام لمصالح عند طالح ، ولم يعد حماس لعمل عام ، وفقد الشعب ذلك الشيء الذي يسمونه الضمير العام ، فإذا الناس ييام أو كالنيام ، وإذا المدير يقضى في الأمور باللفظ البذيء وهو قعيد كرسية لا يحجزه لعمل راتبه الكبير ، وإذا معاونه يشاطره البذاءة وبلادة الحس والاستهانة بمسؤوليات الوظيفة ، وإذا الناس في المصانع والمعامل غير مباليين ، ينافسون تنابلة السلطان ، وإذا مصالح الناس مضية في شغب يريد حقوقاً لا تقابلها التزامات ، وإذا الحكومة المؤلفة من مراكز القوى منصرفة عن واجباتها تستطلع الغيب بضرب الرمل أو سؤال مندك أو فتح فججان . . . أيهم الرئيس المقبل وأيهم سييتي إلى السلطان ؟ . . .

وفي أي مناخ يحدث هذا ؟ يحدث هذا الموان في شؤون الحكم ولا أقول والعدو على الأبواب ، فإن العدو بين ظهرائنا ، يحصل أراضينا ويرصد خطانا لعله يصيب مكاسب أخرى من الأرض والأخلاق .-

كم أنا مشفق على هذا المير ، الذى يسوس أمورنا فكل يوم
تثار قضية لم يكن هو صاحبها أو طرفاً فيها ، بل هى قضايا صنعتها
البطانة ومراكز القوى فأثقلت بكاهل الرجل وهو يحاول أن يطب لها
ما وسعه الجهد ، وفى هذه التركة أمور استعصت على سلفه الساحر
الخطير ، ولن يغنى فيها طب أو دواء ، إلا أنه يحاول ، وعلى المرء أن
يسمى وليس عليه إدراك المنال ...

كيف يغير « المير » أخلاق الناس ؟

كيف يتمتع من الكذب والكذب ليس فى البيوت أو المصالح وحدها ،
بل الكذب فيما تمضغ من طعام وفيما نستشق من هواء وفيما نشرب
من ماء ؟ ...

كيف يقضى « مير » البلاد على الرشوة بعد أن فشت ، ولم يعد فى إمكان
مواطن أن ينال حقاً إلا إذا قدم — كما يقول أولاد البلد — حق
الدخان ؟ ...

كيف يقضى « المير » على القش فى الاسواق وفى البيوت وفى المصانع
وفى الضائر أيضاً ، إذا كان القش مزدهراً فى كل مكان ؟

كيف يفرس « مير » الدولة حب الوطن فى نفوس الناس ، وهل
يستطيع أن يفرض عليهم ذلك وقد خفت عقيدتهم ، وحب الوطن
— كما يقولون — من الإيمان ؟

كيف يستطيع « مير » البلاد أن يحمى حراً عنده كلبة يريد أن يقولها ،

وفي صدره ضيق يرد أن يفضيه ، وفي ذهنه رأى يجب أن يعلنه .
إذا كانت أدوات الماضي لا يزال بعضها — كما يشيعون — يربض عند
ساحة السلطان ؟

كيف يزيل «المير» ما في القلوب من أحقاد ، وقد تأصلت في كل صقع
رناد ، ولم تفل حتى من قلوب الآباء والأبناء ، والإخوة والأشقاء ،
إلا أن يكون ساحراً ، وحتى السحر الذي لا يدعيه الرجل عاجز عن
القضاء على أسوأ ما عرف في طبيعة الإنسان ؟

هل يستطيع «مير» الدولة أن يقضى على هذه الخنثة التي انتشرت
ليس فقط في شعور الشباب المسترسلة ولا في عيائهم المزركية ،
بل انتشرت في نظرتهم الرخيصة للحياة ، فأصبح لهم في أخذ طرائقها
مسالك تنسم بالميوعة ولا تليق في زمن يلح بالجد والهدد لعلنا
نتنصر على الحياة ؟

ليس في مقدور «المير» أن يغير شيئاً من هذا كله ، والله سبحانه
وتعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وهم لا ينجون
التغيير ، فقد رضيت بجلتهم أن يبقوا حيث هم لا يتقدمون وقد
يتأخرون ؟ ...

هل عظمى أنا أو مصيب حين زعمت لك أن دليلاً لا يسعد فيها
عدو أو حبيب ؟
لا أريد أن فهم أن ذلك إرث العهد الذي انتهى أو أنه شيء وضع

في العهد الجديد ، فإن ذلك كله تناج أجيال مضت ، غير أن بطانة المير ،
الراحل ومراكز القوى في أيامه ، قد مكنت لهذه المساوية ، وكذبت
على نفسها وعلى الناس حين زعمت أن الثورة جاءت لتقضي على سوءات
الماضي ووجهه لقبيح ، فإذا هم يظالمهم ويطغياهم يقضون على البقية الباقية
في نفوس الناس من مكارم الأخلاق ، ويتفجعون سياسة خبيثة من شأنها
أن تهدم أصالة لمقول والنفوس ، وتكشف عن الغرض الذي اتتوه...
والغرض الذي اتتوه أن تكون في يدهم أمة عارية من الأخلاق ،
وبهذا — وبهذا وحده — يستطيعون أن يحكموا مواطنهم ويسوقوهم
بالمصا سوق الخير ، أو في أحسن الظروف سوق الحادى البعير؟...

مذرة إن أبطال في الكتابة إليك ، فأت لاتدرى كيف نحن
مشغولون في نفاقستان ؟ ...

أن أحداثاً خطيرة تدور عندنا وقد قلبت حياتنا رأساً على عقب ،
وصرفت المواطنين — جميع المواطنين — عن كل شيء ، وهدت
أعصاب الناس ، وملأت قلوبهم بالحلم والغضب ، ونفوسهم بالحسرة
والآلم ، وألغتهم حتى عن صلاتهم ، وزالت إيمانهم بكل جميل وجميل ..

نعم فإن الأسواق قد خلت من القوطة !! وإن رمضان على الأبواب
والأسواق قد شحت فيها لغات قر الدين ؟ ! ...

ماذا أقول عن هذا الجيل ؟ وأين أضمه بين أجيال نفاقستان ؟

تحطم أعصابه حين يقتقد القوطة وقر الدين !

أما أن تحرمه البطانة الحد الأدنى من حرية القول والتعبير ...

أما أن يرى أباه أو أخاه أو ذوى قرياه يحشرون بالمئات في
اللعنات والسجون ...

أما أن يعين واحداً لم يستكمل دراسته الثانوية رئيساً للجنة الطاقة
الذرية ويقبل العلماء هذا التمييز ...

أما أن يتهم مرثى ببيع يد المال العام فيمأقب بتمينه في إحدى
وظائف السلطان ...

أما أن يذر واحد من أهل الثقة عشرات الملايين من الدنانير
لتنحيز الصحراء ولا تحضر الصحراء ثم يعاقب بأن تغلق عليه دائرة
الانتخابات ثم يعين بعد ذلك سفيراً في إحدى السفارات ...

أما أن يسوقوا مسيرة الرعاع في شوارع العاصمة تهتف بسقوط
الحرية ! ثم يقودها حرفوش من رجالهم لضرب قاضي القضاة في
ساحة القضاء المقدسة ، وتهتف بسقوطه وتنعت بالجهل وهو أبغ من
عرفت نفاقستان من علماء التشريع والتفتين ...

أما أن يقوم زبائنيهم من عتالة القمع والصف والطفيان بتحلیم
أدمية الأحرار من المواطنين بالفسق في حرائرهم أمامهم ، وبعضهم
عذارى لم يبلغن الحلم ...

أما أن يتفخ المواطن حتى يبدو كحامل في شهرها التاسع ليقر بإثم
لم يرتكبه أو يدعى على صحبه وزملائه زوراً بأنهم يتآمرون بلبيل
ويعدون لثورة أو انقلاب ...

أما أن يلزموا سجينهم الشيخ وهو في الثمانين من عمره بأن يعد
أعواد النجيل في حديقة السجن المريض ! ويفرضوا عليه أن يفتي
أغنيته الثقيلة السمجة وهو يكاد يسقط من فرط الضعف والإعياء ...

أما أن يفرضوا على مواطن حر — وكان من أببل الوزراء —
أن يبقى في ساحة السجل تحت وهج الشمس مكشوف الرأس وأطباء
السجن قد حذروا من موت الرجل إن تعرض لشمس يوم حرور ..

أما أن يرى إخوانه المسلمين يصعدون إلى المشائق وبعضهم تجاوز
السين وبعضهم من الأئمة الصالحين ...

أما أن تسيء البطانة ومراكز القوى إلى « المير » الراحل الخطير
فتوزع « ورة الحرم النبوي الشريف عقب وفاته مباشرة ومن وراء
قبتها تخيم صورة هذا « المير » وقد سجلوا تحتها الآية الكريمة
« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ... ! !

أما أن تنشر صحيفة الأرقم قصيدة لشاعر من توريطستان يؤن فيها
« المير » الساحر الخطير فيحط من قدر القديسين ويرفع من قدر
« المير » ، ويراه خسارة فينا وما كان ينبغي أن يكون منا وهو أعظم
من الأنبياء والمرسلين ...

أما أن يشاهدوا كيف حشر المأجورون في القطر والسيارات
ليزعموا العاصمة مقبلين من كل فج عميق ليحيوا الهزيمة صائحين صاويخين ..
أما أن يروا في الصحف نائباً في مجلس أمنهم يرقص طرباً يوم
العار والشار وأرض الصحراء تخضبها دماء أولادنا المجاهدين وهم
نحو ثلاثين ألفاً أو يزيدون ...

أما أن يحدث هذا كله ولا تهتز شعرة في القوم ، ثم تقوم الدنيا
وتتعد لاخفاء القوطة وقمر الدين ، فلك والله شهادة « للتورة »
التي « يشاطاها » هذا الجيل ولا يفق منها إلا في صفائر الأمور ... ! ؟

نفاقستان في ٥ أكتوبر

استمعت إلى «مير» نفاقستان الجديد وهو يخُطب في الناس، فسرتني أشياء كثيرة فيما قال، منها أن «المير» يتحدث على سجيته، طبعي لا يلف ولا يدور، وليس في عينيه عنف ولا قسوة، وفي حركاته بدا صورة مشرقة لأهل نفاقستان الذين لا تطوى قلوبهم على «وجدة أو نخزن في أعماقها العقد والاحقاد».

وصرتني من الرجل أنه يذكر ربه ويتعلق بمشيتته كلما عرض أمراً أو انتهى عملاً، ويذكر ربه بإيمان المؤمن الواقف من عطف الله المطمئن إلى إرادته، وقد اعتدنا أن نستمع من قبل لبعض أفرانه وهم يخُطبون كآلهة، وكانت خطبتهم كلها تمضي ولا ذكرى فيها لروحانيات، وكانت الشدة والعنف طابعها، والوعود الواهمة تردحهم بها، والوعيد للخصوم والأعداء سواء في الداخل أو الخارج، يزجر من فوق للنصات، ونسى الرعماء الخطباء أن مامن وعد أو وعيد يمكن أن يتم إلا أن يشاء الله، وكثيراً ما كان الله سبحانه وتعالى يشاء غير ما يشاء هؤلاء الرعماء.

وأعجبني في «المير» الخطيب أنه لم يند بلفظ خارج وهو يتخذ مواقف الدول الكبيرة من بلاده، بل لم يخرج من فيه عبارة جارحة وهو يهاجم خصوم بلاده وأعداءها، وكان صدره يضيق ولا ينطلق لسانه! وهكذا يكون حديث «الميرة» الذين يقدرُونَ وقار القيادة ومقامها في بلد عظيم متحضر، لا يستهدفون التصفيق وابتزاز الإعجاب من السوق والدعماء!

وقد استراح صدرى حين ألصقتُ إليه وهو يتحدث عن زعماء الجيران ،
نور ابراهيم زملاء جهاد ، مهما تختلف أساليبهم مع أساليبه ، ومهما تلبان
حرارة جهادهم مع حرارة جهاده ، فهو يريد منهم المأزورة والمساندة ،
كل على قدر ما يحمل صدره من قوة ، وعلى قدر ما في عنقه من مسؤوليات ،
لا يراهم نوابغ بل يريد منهم إخوة جديرين بالتقدير والاحترام ، إذا
بعث لهم بسفارة كانت سفارة مودة وتأخ لاسفارة مندوب سام .
خلا من الرقة ، واستبدت به الغلظة والنظرة والفحة وسوء الأدب ،
كأنه سفير مكلف بامتهان كرامة الجيران ...

وأعجبني أشد الإعجاب حين تحدث عن بلدنا العظيم نفاستان ،
وماضيه الزاخر بكل المفاخر منذ تاريخه السحيق ومنذ تاريخه القريب ،
وهذه نعمة حرمناها سنوات وسنوات ، فقد كانت الخطب طبلًا أجوف .
تضمن مجموعة سخية من الشعارات الفارغة التي تهمز العقول البلباء ، وتطرمه
لها القلوب المريضة ، وكلها عن حاضر الوطن ومنجزات حكمائه ، وما كان
تاريخ نفاستان العظيم يذكر بحرف إلا في ميدان الإساءة إلى هذا
تاريخ وإلى أصحابه ، وبعض أصحابه من الرواد الغر الميامين ، حتى
كاد النشر لا يعرف لنفاستان تاريخاً ، وأن هذا التاريخ حافل بالآجاد
التي يجب أن يعتز بها المواطنون قامت ألف ثمرة أو مضى ألف جيل ...

إن في الرجل كبرياء ، غير أنه خلا من التكبر والتجبر والتزمت
والعقد والغرور ...

وقد لاحظت في خطب هذا المير ، إصراره على تنشئة المواطن على العلم والإيمان وعلى بناء الإنسان قبل التفكير في بناء المصانع ، فإن ألف مصنع لا قيمة لها إذا قام على خدمتها إنسان لا علم له بما يقوم على خدمته ولا إيمان في قلبه ينير له الطريق ، فسوف تكون مصانع يرعاها عبيد ، وما من عمل أنتج وأفاد إلا وكان وراءه أحرار يعون ويفهمون ...^١

لأنه يريد من كل مواطن أن يكون جندياً في موقعه ، وأن تكون الحرب بيننا وبين عدونا الضئيل حرباً شاملة ...

وأفهم أنا بما يعنيه « المير » أن يجعل كل مواطن سلاحه لمواجهة العدو المغير ، وأنه لا ينبغي أن تكون المعركة للجيش وحده ، فإن الجيش قد تنتصر وقد تلحقها الهزيمة ، وهزيمة الجيش لا تعني أبداً هزيمة الشعوب ، وفي التاريخ أكثر من مثال على ما أعني وأقول .

لقد انتصر نابليون على دول أوروبا ، واحدة إثر أخرى ، فقد هزمنا جيوشها جميعاً أمام جيوشه ، ولكنه حين أراد أن يخضع الأسبان والروس ، لسلطانه ، لم يواجه جيوشاً نظامية اصطفت للقائه ، بل وجد نفسه بين شعبين يحارب كل فرد فيهما ، وقد حمل المواطنون جميعاً السلاح لمواجهة ، وهنا حاققت به الهزيمة النكراء ، بل كان تورطه في حرب الشعوب نهاية لاتصاراته الخرافية ، وقضاء على جبروته وطنيانه ، وبذلك تخلصت الدنيا من آثامه ، واستردت دول أوروبا حريتها حين حارب عنها شعبا الروس والأسبان ...

ونحن أيضاً حاربنا حرباً شعبية حين نزلت جيوش ملك مسيحي متعصب بلادنا ، فأرقنا جنده ، وخطفناهم ، وذبحناهم ، حتى فتّ في عضده ، وأسر هو نفسه ، ولم يكن فضل النصر لجيشنا وحده بل كان الفضل الأول للجهادين من أفراد الشعب الذين دوخوا جند العدو حتى أصبح لا يدري من أين تجمّته الضربات ، وحتى عجز عن ملاقاتها وهي تصييه مرة في صدره ومرة تأخذه من قفاه ...

وفي الحرب العالمية الأخيرة ، مضت جحافل هتلر تكتسح دول أوروبا وتسوق جيوشها إلى العار والتسليم ، حتى جاءت هذه الجيوش مدينة سنالكجراد كما كانت تسمى في ذلك الحين ، وهنا توقف المد النازي فلم تجدد جيوشه جيشاً نظامياً لتهرمه ، بل واجهت شعب المدينة يحاربها من شوارع لشارع ، ومن حارة لحارة ، ومن عطفة لعطفة ، ومن زقاق لزقاق ، ومن بيت لبيت ، ومن حجرة لحجرة ... وإذا بالجيش الجرار الجبار يتجمد من عنف المقاومة ، وإذا الجيش الذي لا يُقهَر يقهره إرادة شعب في مدينة ... وإذا هو يرتد خاسراً مدحوراً ...

هل نحن مجادون ؟

إنّ الغداية وحدها قادرة على النصر شريطة أن تكون هذه الغداية أسلوب الشعوب جميعاً في منطقتنا ويومئذ لن نكون في حاجة إلى طائرات ومدافع وصواريخ بقدر حاجتنا إلى سلاح في اليدين يحمله عشرات الملايين ، تصيده مليونين من حرافيش القوم التامنين ...

وتسألني كيف تصيدهم وبيتنا وبينهم عواقق وسدود ؟

يا أخى ؟

السفوا الجبال والتلال لينفتح إليهم الطريق ...
 ادموا القنوات والأنهار ليسهل إليهم المرور ...
 لتذهب إليهم فإنهم لن يميثوا خشية أن تمضفهم كثرتنا ، فلنذهب
 نحن إليهم بهذه الكثرة حتى نصلبهم ناراً من سدير ...
 وتساألنى كيف نحمل مدنتنا من طائراتهم ، فقد يدمونها وتفقد هذه
 المدن بهامها وجمالها ؟

يا أخى

فليدموها ، فسوف نعيد بناءها من جديد ، ونبنى معها جيلاً لا يعرف
 الخوف ، ونبنيها بالنم الغزير والعرق الكثير ...
 فليدموها لنخرج منها فلس ترد أرضنا ونحمو عارنا ..
 يا أخى

لقد هدمت في الحرب العالمية الأخيرة لندن وبرلين ، وبنى المنتصرون
 لندن ، وحتى المهزومون بنوا برلين ...
 لقد حرق الروس بأيديهم عاصمتهم ودمروا عمارتها وآثارها
 ونحفها ، وقطعوا مياهها ، وسمموا ماشيتها وأفسدوا طعامها ، حتى إذا
 جاءها نابليون كانت قاعاً صفصفاً ، فافقد الدفء ، وعرضه الجوع ، وبهرته
 الفدائية ، فارتد عبر البرد البريد والجو الثلج ليوت جيشه في الطريق ...
 ثم ينتصر الروس ويبنون مدينتهم من جديد ...

يا أخى ؟

ليست مدنتكم بأهل من موسكو ولندن وبرلين ...

ثم ماذا ؟

ونحن أيضاً ، فى منطقتنا ، نملك نصف ما يملكون من طائرات ...
لأنهم بطائراتهم سيواجهون مائة مدينة ومدينة ، ونحن بطائراتنا
سنواجه فى بلادهم مدينتين أو ثلاثاً ، وبشئ من (القدائية) ننتصر
بمائة طائرة أو بمائتين أو بمئسمائة وندمر مدنها الثلاث ...
وبذلك تنتهى قصتهم لا إلى حين بل إلى أبد الأبدن ...

يا أخى ؟

هذه هى الحرب ، وهذا هو الجهاد ، وإن انتصر الشعوب أبداً
بالخطب والمقالات والأغاني والأناشيد ...

وتسألنى كيف نحقق هذا الجهاد المير ؟

إن ذلك يقتضى الثقة بنفسنا ...

ثم يقتضى الإيمان بالقيم الروحية ...

ثم يقتضى اتحاداً شاملاً بين الجميع ...

ثم يقتضى بذل الترف حتى يتم النصر المبين ...

ثم ماذا ؟

ثم يقتضى قبل ذلك ، وفوق ذلك ، أن يحس المواطنون الفدائيون
المجاهدون أنهم أحرار حين يرون فى الأمور رأياً ، فلا يخشون سجنًا
أو معتقلًا أو اغتيالًا بليل أو مصادرة لقلم !

صدقنى يا صاحبي ، إن النصر سهل ويسور ، لو ألصقت القوم
بالمودة إلى ما أعنى وأقول ...

فهل هم منصتون ؟ ...

يوم العبير

أرأيت ياسيدى « المير » الطيب النيل كيف كان شذا اليوم المشرق
المعظم ؟

أرأيت ياسيدى « المير » الشجاع الكريم كيف ملا مواطنوك الدنيا
بريحهم الزكى فى يوم العبير حتى أسعدوا أنوف الاصدقاء ، و غاظوا من
فقدوا حاسة الشم من الأعداء ، وتحدثت الدنيا عن هذا العبير الصافى
بهيء من ضفاف نهرنا العظيم أزكى من الورد وأمتع من الرياحين ؟

أرأيت ما فعل مواطنوك فى ذلك اليوم المقدس ، فأعطوا أرواحهم
بسباح وحملوا رموسهم على أكتفهم ، واجتاحوا الهول الذى أخافونا به ،
وحذرونا منه سنوات وسنوات حتى كنا من عار تلك السنوات نطأ طيء
رموسنا ونسكر جفسيتنا ، إلى أن قررت فى شجاعة الشجعان أن تغلق
الشذا الطيب ، وحملت الأبطال مسئولية توزيع العبير الذى فاق شذاه
الزئذ والياسمين ؟

أعرف أسياپ النجاح « ياميرنا » الطيب العظيم

إنها نسبات الحرية التى بدأتها « بعصرك » الجليل ...

إنها العدالة التي أنقذت الأحرار من المعتقلات والسجون ...
إنها الإنصاف الذي رد الحقوق لذويها بعد أن طالَّت إجازة
القانون ...

مزيداً من الحرية أيها المير ، الطيب العظيم ... فقد تحتاج يوماً
لأن تغزو بمواطنيك القمر ، ولا تغزى الأقار إلا بالأحرار الذين
لا يعرفون الأصناد والسلاسل والقيود ...

أتعرف بمن تذكرك أنت ؟

أنت تذكرك بأحسن حين طرد المكسوس من مصر ...

أنت تذكرك بقطر حين ذاد عن البلاد والدين وهزم الأعداء في

عين جالوت ...

إنك نالت ثلاثة يعتز بهم التاريخ عبر آلاف السنين ...

مزيداً من الحرية أيها المير ، الطيب العظيم ...

ودعنا نعيد بطولتك ، فهي واقع ملوس ، واسمح لنا أن نكفر
ببطولة الهزائم والعار ، وإلا استوى الطيب والخبيث ، وأصبح النور
والظلام عند الناس سواء ...

مزيداً من الحرية أيها المير ، الطيب النبيل العظيم ... إنك تعلم
كما تعلم لِمَ لحقت بنا الهزائم وطوانا العار ؟

كان أولادنا وأولادك يحاربون بالأمس البغيض ، ووراهم أب

مسجون، أو أخ مقروح ، أو قريب معتقل، أو صديق يُخرب بيته بالمعنى الدقيق لتخريب البيوت ، وكانوا يحاربون ومنهم من قُطع رزقه وأبعد عن عمله أو دُمِر عمله ، أو أدب في حشرات التعذيب ! وبذلك كله ذهب أولادنا وأولادك للعرب وهم يعلون أنهم بالنصر سيمكنون للظلم والعدوان ، فحاربوا بلا هدف ، ولن يتصر محارب غريب في وطنه أو قل شهيد في وطنه ...

كيف كنا نرجو النصر في الأمل البهيم ، والمحاربون يعلون أن النخبة الواعية في بلادهم تنزل السجون والمعتلات ، أو تقصف أقلامها بنافذة وشراسة ، أو فارة تهم على وجهها يبدأ عن الوطن ومن في الوطن من الأهل والمحب والاعزة من الأبناء الضغار ؟ ...

كيف كنا وكيف أصبحنا ؟

كانت بلادنا منذ مائة عام ملجأ الأحرار من أوطان الجيران ، يفرون إليها من ظلم وقع في بلادهم فيجدون الحرية وينشئون الصحف ، ويؤلفون فرق التمثيل ، ويتاجرون ويعملون ، ثم انقلب الحال ، وأصبح أحرارنا بعد مائة عام يهربون إلى بلاد الجيران خشية أن يساقوا إلى الذبح والسُلخ ، حتى جاء «عصرك» فرد الروح إلى الناس ، وبدأ الأحرار الفارون من أصحاب الفكر والقلم يعودون إلى تافستان ، حيث فطر الله تافستان على

المودة والمعروف ، وجعلها في العالمين موطن الاعزة
والكرام . . .

مزیداً من الحرية أيها المير ، الطيب النيل العظيم . . .

أريد أن أراك وميراً ، بالانتخاب لا بالاستفتاء . . .

أريد أن أرى نفاقستان ووضه غناء تتمدد فيها الورد والرياحين . . .

أريد أن أرى الناس يأكلون مايحبون ، ولا يجهرون على طعام
واحد ولو كان ديسكة رومية أو مافي مرتبة الديسكة الرومية من
طعام . . .

أريد أن أرى الأقلام الحرة البناءة تصطرع ، فقد آذتنا الأقلام التي فرضت
علينا ولا تجرؤ على كلمة الحق نقولها ، أو لعلمها لا تعرف كلمة الحق
لنقولها . . .

لن ينسى لك الجليل إنصافك ، للتوأم ، فهما من عمد صحافتنا ومن
المع العاملين في حرمها ، وإن الفرحة التي غمرت أهل الفكر والرأى ،
لا تُترد إلى تحرير واحد من سجنه ، وعودة الثاني من منفاه ، وإنما
كانت فرحة أهل الرأى والفكر للمعنى الذي انطوت عليه يدك ، والقرار
الإنساني الذي أمله مروه تك . . .

مزیداً من الحرية أيها المير ، الطيب العظيم . . .

لا تزال هناك أسيرة لها في تاريخ الصحافة تاريخ ، شردها الطغمة

الباغية ، ثأت رأسها منضياً ودفن جثمانه في بلد ه حبيب ، ولا يزال الواحد منهم في المنى وهو أيضاً علم من أعلام صحافتنا ، فأكمل في هذا الميدان فضلك ، ورد الغائب إلى الحلية ، فإنها مشوقة إلى هؤلاء الفرسان بعد أن سوروها وقصروها على حملة الطبول والمزامير . . .

مزيـداً من الحرية أيها المير ، الطيب النبيل .

إن قلبك الأبيض الذى خلا من العقد والاحقاد . . . والذى لا يضيره أن يعيش مواطنوك كما تعيش ، وإن ه عصرك ، الأبيض الذى جعلته تراثاً لنا . . . إن هذا البياض فى القلب والعصر سوف يلهمك السداد فتصل بنا إلى ما نحب ونريد وأفضل ما نحب ونريد هو الحرية — حتى نستطيع فى ظلها — أن نحكى للجيل وأجيال مقبلة بطولتك وشجاعتك ، ونقص عليهم نبلك وأصالتك ، ثم نفسى بك ، وبما فعلت ، العذاب الذى عشناه دهرآ ، ونمحو بك وبما فعلت تزوير التاريخ ببطولات مزعومة ، وشجاعات موهومة . . .

أيها المير ، الطيب النبيل . . .

أنا لا أوافقك ، فليس لى عندك حاجة ، فمنذ زمان بعيد بعيد شملت أرفع المناصب ، ومنذ زمان بعيد بعيد ، وأنا أرتقى على صدرى بما كتبت وألفت وعملت ، النياشين والألواط ، حتى لم يعد فى صدرى مكان لنوط أو نيشان جديد . . .

ليس لي عندك حاجة أيها المهر ، الطيب الشجاع العظيم ، فإن
أى تعرض في الدنيا مهما يكن قدره ، أراى في قدرى أعلى من قدره ،
ولا أحب وأنا أختتم حياتى أن يقول تلاميذى يوماً . . . هذا الرجل
علنا أن السلطان من بعد عن السلطان ، ولكنه في أخريات أيامه
أغراه السلطان بيد أو رصلة ، لحق عليه هو أن يتعلم ١١٤

نفاقتان في ١٥ أكتوبر

عزيزي تقيان

لقد سرني أن استقر بك المقام في وردستان، حيث البحر والجبل،
وحيث حرية الفكر والعمل، ولك لابن بجندتها القادر على أداء
الواجب مهما يشط بك المزار...

وقد سرني أن هجرتك إلى وردستان لم تترك في قلبك خفيضة لبلادك
و شقائقك، وأعجبتني فيك أن ترى المنطقة كلها شعباً واحداً كما تقول، كل بلد
منها يعيش في إطار، ولنا أن نختار، وقد اخترت أنت وردستان واخترت أنا
أن أبقى حيث عاش آباؤى وأجدادى في نفاقتان، وأن أصبر على عهد النذل
والطغيان إلى أن انزاح هذا العهد وانفتحت الحياة الفتاحة الأحرار.

وقد أسعدنى أن تنشئ في وردستان هذه الدار العظيمة للنشر
والطبع والتوزيع، وإنى لوائق أنك بملك وأستاذيتك ستحسن اختيار
المطبوع الذى يليق بأن يصدر عن دار نشر تعزى بأشرفك عليها، فسوف تهدف
مطبوعاتنا إلى تنقيف أبناء وطننا الكبير، وكشف الخبايا من الباطن
والمعارف، والعناية بترائنا وتراث سائر الأمم والشعوب.

إنك تريد أن تنشر رسائلنا التى تلقينها منى فى كتاب، وتريد أن
تنشرها فى وردستان، لأنك تخشى أن يساء الظن بهما فى وطنى هنا
فتعرض للصادرة، وقد يساء لصاحبها فيساق إلى السجن أو يضار فى
رؤيته أو يناله مكروه من هذا أو ذاك... ١٩...

ويبدو أنك لم تع رسائي ، أو لعل لم أحسن العرض والبيان وأنا
أصور لك المناخ الذى نعيشه اليوم فى نفاقستان ، فنحن نعيش فى حالة
من سيادة القانون ، ولم تعد الأمور فوضى فيؤخذ بتلابيب الحر إذا
اعترض على رأيه السلطان ، وإن سيادة القانون لا يمكن أن تسود
وتعيش معها المعتقلات والسجون ...

نحن هنا فى موجة انفتاح ، انفتاح فى طرائق النظر إلى الحياة ، سواء
كانت هذه الطرائق اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية ، وهو انفتاح ليس
بينه وبين بلوغ الذروة قيود أو عقبات ...

إن الكتاب الذى بين يديك ، وهو مطبوع فى نفاقستان ، ويضم
مجموعة رسائل إلىك ، يوزع اليوم فى كل مكان ، وتلك وثيقة حية تبطل
مخاوفك ، وتؤكد أننا نعيش حقاً فى ظل حرية تؤكد سيادة القانون ،
وأن نفاقستان لا تزال — فى المنطقة — بلد الحرية والمساواة ...

وطوبى لمن يقر فى نفوسنا الأمان ...

وطوبى لمن يعلن الحقيقة لتضى وتبهى ...

وطوبى لمن يحطم الكلات والعزى وسائر الأصنام ...

وطوبى لمن يبارك هذا كله ، فهو إنما يبارك الحرية التى افتتدناها
دهراً من الزمان ، وهو إنما يبارك حقاً مباحاً لكل مواطن يجب أن
يؤكد ويصان .

ألم أذكر لك فى رسائي ، أننا نعيش اليوم فى دولة حرة كل من
فيها أحرار ؟



* تولى المؤلف رئاسة معهد
الصحافة وأستاذية الفن
الصحفي بجامعة القاهرة
سابقا

* شغل منصب الرقيب العام
ومدير المطبوعات عقب
حريق القاهرة المشهور

* اختير مستشارا لأكبر مؤسسة للطباعة والصحافة في
المملكة العربية السعودية في سنتي ١٩٥٣ ، ١٩٥٤
* عين خبيرا للمطبوعات والنشر بحكومة الكويت من ١٩٥٥
الى ١٩٥٧

* أنشأ مؤسسة سجل العرب وهي من أكبر دور النشر في
مصر سنة ١٩٦٠ وأنشأ مطابعها سنة ١٩٦٥
* له نحو أربعين مؤلفا طبع بعضها أربع طبعات متتالية
بعضها الى عدة لغات ، فضلا عن آلاف الملاحظات
التي نشرت له في المجلات العلمية والأدبية سواء
أو في الخارج

* فصل من الجامعة سنة ١٩٥٣ وبراہ مجلس الدول
صدر سنة ١٩٥٧

Bibliotheca Alexandrina



0684774